مكتبة فلسطين للكتب المصورة

حصول الطلب بسلوك الأدب

أو

سلوك الأدب .. جمال الحياة

تأليف / محمد بن موسى الشريف

حصول الطلب بسلوك الأدب

أو

سلوك الأدب جمال الحياة

تأليف

د. محمد موسى الشريف

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ١٣٥٠٦/ ٢٠١١

الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977-265-819-4

دار التوزيع والنشر
ش.ذ.م.م.

مصر - القاهرة - السيدة زينب ص.ب ١٦٣٦
٢٥١ ش بورسعيد ت: ٢٣٩١٧٩٥٦ - فاكس: ٢٣٩١٧٩٥٦
مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٢٣٩١٧٩٥٠
www.eldaawabookshop.com
Email:d.eltwzea@gmail.com

إهداء

إلى روح أستاذنا الذى توفى فى شرخ الشباب السيد أبى عبد الحميد رحمه الله تعالى

أهدى ثواب كتابى هذا

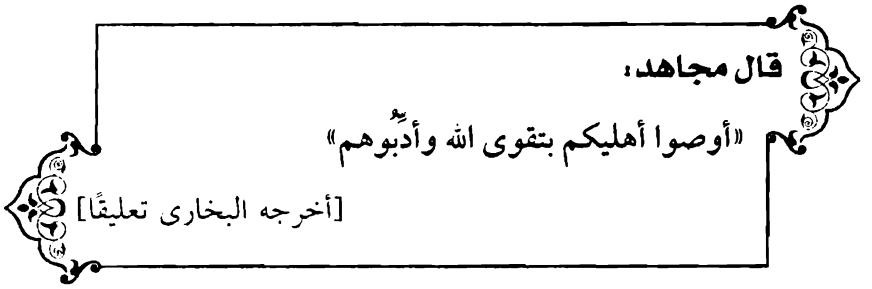

قال مجاهد:

«أوصوا أهليكم بتقوى الله وأدِّبُوهم»

[أخرجه البخارى تعليقًا]

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه، ولله الحمد، الطبعة الثانية لهذا الكتاب، وقد تأخرت إعادة طبعه لعوامل أحسب أن منها عنوان الكتاب وعدم كمال دلالته على الموضوع، فرأيت لذلك أن أغير عنوانه إلى ما كنت عزمت على تسميته به أولاً، تقريبًا، وهو: «**حصول الطلب بسلوك الأدب**»، راجيًا من الله تعالى أن يعم به النفع ويكتب لي به الأجر.

وأرجو ممن يقرأ هذا الكتاب أن يتحفني بنصائحه، إن رأى أن يُقوّم شيئًا أو يعلِّق على أمر ما، ويرسلها على عنوان دار النشر، شاكرًا للجميع.

وهذه الطبعة فيها بعض زيادات، وفيها تراجم للأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب.

هذا والله تعالى أعلم وأحكم، وصلى الله وسلّم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

●●●

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذى جعل هذا الدين منارًا للسالكين، وشرع له تعاليم هى رحمةً للعالمين، وزيّنه بآداب حميدة، وأخلاق قويمة؛ فَضلَت خُلق المتخلقين، وسبقت طرائق المتأدبين.

وصلاةً وسلامًا تامَّيْن كاملين عَطِريْنِ على مؤدِّب الأخلاق، وعَلَمِ المؤدَّبين، سيدنا أبى القاسم متمم مكارم الأخلاق، وعلى آله طاهرى الأعراق، وصحابته الكَمَلةِ السُبّاق، الذين أنار الله بهم الآفاق، وبعد:

أخى:

رزقنى الله وإياك حسن الأدب، وسهَّل لنا طرائقَه، وحبَّب إلينا مسالكه، وعرّفنا دقائقَه، وزيّن لنا فضائله، وجعل بيننا وبينه نسبًا، ورزقنا منه سببًا، وأشعر قلبك الأول عِزَّه، وأودع صدرك برده، وعرَّفك حلاوته.

وعصمنى وإياك من سوء الأدب، وعرفنا ما فيه من الذلة، وما لسالكه من القِلَّة، وما لمستحله من هوان، وما لمستسيغه من الخسران، وما يورث صاحبه من الطغيان الذى هو من أعظم أسباب الكفران.

واعلم، أخى، أنه ما دفعنى إلى تصنيف هذه الرسالة، وتسطير تلك المقالة، إلا ما رأيته من مظاهر أفزعتنى، وما سمعته من أحداث أرقتنى، وما لمسته من معاملات أقلقتنى، فجعلنى ذلك كله كأنى، عَلِم الله، مدفوع دفعًا لما صنعته، ومأمور بما سطرته، لا أملك حيلةً لرده، ولا أطيق مقاومةً لأمره،

وقد سدّ هذا الواردُ علىَّ أبوابَ الأعذار، وساقنى، ولم يَقبل الإمهال، حتى جعلنى أشرع فى تصنيف هذا الذى أعدُّه للآخرة، وتأليف ما لم أُرد به المفاخرة، إذ عندى من الأعمال ما يمنعنى من سلوك هذه الطرائق، ويشغلنى عن السير فى تلك المضائق.

فالله أرجو أن يعم به النفع، فيكون تذكرة للمنتهى، وفائدة للمبتدىء المؤتسى[1]، ومُحبِّباً فى تلك المبادئ، ومرغبًا عن كل المساوئ.

واعلم، أخى، أنى لم أقصد، فى هذا المصنف، جمع كل أبواب الآداب، ولا استيعاب ما ورد فيها من آيات وآثار وأخبار؛ إذ لذلك موضعه، وإنما عمدت إلى أصول فقررتها، وأتيت من فروعها البواسق ما أظنه مناسبًا لما هنالك، وسلكت فى ذلك كله سبيل الاختصار حتى يكون فيما أورده غايةُ الاعتبار، والله المسئول أن يجازيَنى عليه بما هو أهله، سبحانه، ويكافئنى بما أردت توضيحه وبيانه.

وقد سميته أولاً بـ«**حصول الطلب بسلوك الأدب**»، ثم أشار علىّ من أحبّ بتغيير الاسم لما فيه من صعوبة على العوامّ، فسميته «**سلوكُ الأدبِ جمالُ الحياة**»؛ وذلك لأن الأدبَ، كما سيتضح في مباحث الكتاب، إن شاء الله تعالى، زينةٌ لصاحبه وجمالٌ له، وهو جمال المجتمعات والمحافل وزينتُها، وفوق ذلك كلِّه هو مطلوب الله تعالى ورسوله ﷺ، ومنهاج الصالحين، وسمة المتعبدين الزاهدين، فما أجدَر الأدبَ على هذا بأن يكون «**جمالَ الحياة**».

(١) المقتدي.

تعريف الأدب

قال صاحب «اللسان»:

«الأدب: الذى يتأدب به الأديب من الناس، سُمى أدبًا لأنه يَأْدِب (يدعو) الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح، وأصل الأدب الدعاء، ومنه قيل لصنيع يُدعى إليه الناس: مَدْعاة ومأدُبة.. والأدب: الظَّرف وحُسن التناول... وأدبه فتأدب: علّمه... ويقال للبعير إذا رُيِّض وذُلِّل: أديب مُؤدَّب»(١).

وقال صاحب «المصباح»:

«أدبته أدبًا... علمته رياضةَ النفس ومحاسنَ الأخلاق».

قال أبو زيد الأنصارى(٢):

«الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرَّج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل... ومنه قيل: أدبته تأديبًا: إذا عاقبته على إساءته؛ لأنه سبب يدعو إلى حقيقة الأدب»(٣).

---

(١) «لسان العرب»: (أدب).

(٢) الإمام العلامة حجة العرب أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصارى البصرى النحوى: صاحب التصانيف، ولد سنة نيف وعشرين ومائة، وكان من مشايخ علماء اللغة الكبار مثل: سيبويه والأصمعىّ، وخلف الأحمر، توفى سنة ٢١٥هـ، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٩/ ٤٩٥، ٤٩٦.

(٣) «المصباح المنير»: (أدب).

وقال صاحب «التاج»:

«الأدب مَلَكةٌ تعصم من قامت به عما يشينه...».

وفى «التوشيح»: هو استعمال ما يُحمد قولاً وفعلاً، أو الأخذ أو الوقوف مع المستحسنات، أو تعظيم من فوقك والرفق بمن هو دونك.

ونقل الخفاجى[1] فى «العناية» عن الجواليقى[2] فى شرح «أدب الكاتب»:

«الأدب فى اللغة: حُسن الأخلاق وفعل المكارم...

وقال ابن السيد البطليوسى[3]: الأدب أدب النفس والدرس... وأدبه: راض أخلاقه وعاقبه على إساءته؛ لدعائه إياه إلى حقيقة الأدب»[4].

وقال الإمام ابن القيم[5]، رحمه الله تعالى:

---

(١) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجى المصرى الحنفى صاحب التآليف السائدة، وأحد أفراد الدنيا، أخذ عن مشايخ عصره وارتحل إلى القسطنطينية فأخذ عن علمائها، توفى سنة ١٠٦٩ بمصر، وقد أناف على التسعين، انظر «خلاصة الأثر»: ١/ ٣٣١ - ٣٤٣.

(٢) العلامة الإمام اللغوى النحوى أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الجواليقى إمام الخليفة المتقى، ولد سنة ٤٦٦، وكان ثقة ورعًا، وافر العقل، غزير الفضل، من المحامين عن السنة، وله عدة مصنفات أشهرها «المعرب»، توفى سنة ٥٤٠هـ، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٨٩ - ٩١.

(٣) العلامة أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى النحوى اللغوى: صاحب التصانيف والنظم الفائق، توفى سنة ٥٢١هـ، انظر المصدر السابق: ١٩/ ٥٣٢، ٥٣٣.

(٤) «تاج العروس»: (أدب).

(٥) الإمام المشهور محمد بن أبى بكر بن أيوب الزُّرعى الدمشقى، شمس الدين الحنبلى، ولد سنة ٦٩١هـ وتوفى سنة ٧٥١هـ بدمشق، وكان واسع العلم، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف، انظر «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢١ - ٢٣.

«وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل، وهو شعبة من الأدب العام»[١].

وهو كما قال، رحمه الله، فإنه قد ذكر فرعًا، لكنه يانع، من فروع الأدب.

وأعم من هذا وأفضل، قوله رحمه الله بعد ذلك:

«وحقيقة الأدب استعمال الخلق الجميل»[٢].

وقال الإمام ابن المبارك[٣]، رحمه الله تعالى:

«قد أكثر الناس القول فى الأدب، ونحن نقول: إنه معرفة النفس ورعوناتها[٤]، وتجنب تلك الرعونات»[٥].

ومن أجمع وأجمل ما رأيته فى تعريف الأدب، قول الحكيم الترمذى[٦]، رحمه الله تعالى:

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٧٦.

(٢) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٧٧.

(٣) عبد الله بن المبارك المروزى مولى بنى حنظلة، ثقة ثبت فقيه، عالم جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير، مات سنة ١٨١ وله ٦٣ سنة، انظر «التقريب»: ٣٢٠.

(٤) الرعونة: الحمق والاسترخاء: «لسان العرب» (رعن).

(٥) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٧٧.

(٦) الإمام الحافظ العارف الزاهد أبو عبد الله محمد بن علىّ بن الحسين الحكيم الترمذى، كان ذا رحلة ومعرفة، وله مصنفات وفضائل ومواعظ وحكم، توفى فى حدود سنة ٣٢٠، رحمه الله تعالى، وكان قد هجر لكلام مضطرب فى الولاية والنبوة ذكر عنه أنه قاله، والله أعلم، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٣/ ٤٣٩ - ٤٤٢، و«الأعلام»: ٦/ ٢٧٢.

«اعلم أن الأدب أن تنزل كل شيء وضعه الله فى جسدك فى موضعه فلا تزيله عن مكانه، كما أنك إذا دخلت على رجل منزله فرأيت كل شيء، مما يوضع فى المنازل مما يمتهن ويؤكل ويشرب ويبسط ويفرش ويوضع، وضع فى مكانه، فيقال للذى يلى ذلك: أديب، وإذا رأيت الأمتعة وهذه الأشياء التى وصفنا مطروحة فى غير مواضعها... أوحشك ذلك وسبق إلى قلبك سوء أدب من تولى حفظ ذلك المنزل وسكنه، وكذا جسدك إنما هو بيت من بيوت الله[1]، قلبك آنية من أوانيه، وقد وضع فى جسدك أصنافًا من خِلَعه منها: الغضب، والرأفة، والرحمة، والشهوة، والرغبة، والرهبة، فالأدب أن تنزل كل شيء وضعه الله فى جسدك من هذه الأشياء فى موضعه، كما وضعه، فإذا هاج منك ذلك الشيء فلست بملوم عليه، إنما تلام وتحمد على الاستعمال بهذا الهيجان؛ فإنه لم يضع فيك الغضب لتستعمله حيث ما تهوى، ولكن إذا رأيت معصية استعملت الغضب الذى وضع فيك له ومن أجله، على المقدار الذى حده لك، وهو أن لا تغضب غضبًا تقع [به] فى المعصية، فإذا فعلت هذا فقد تركت الغضب فى موضعه كما وضعه، فإذا غضبت غضبت له[2].

وكذلك كل شهوة وضعها فيك من الأكل، والشرب، والجماع، واللباس، والركوب، والمشى، والنظر، والاستماع، والشم، والبطش، والسعى، والكلام، وغير ذلك فإنما وضعها فيك لتستعملها له، ومن أجله، وعلى الحد الذى حده لك، فإذا كنت كذلك فأنت أديب، وهذا أدب الدين»[3].

(١) هذه إضافة تشريف كما يقال «بيت الله»: للكعبة، وناقة الله، وعبد الله... إلخ.

(٢) أى لا تفعل هذا الذى ذكره لكن إذا غضبت فينبغى أن تغضب لله.

(٣) «جواب كتاب من الرّىّ»: ١٧٤، ١٧٥.

وأختم بهذه الكلمة لابن القيم، رحمه الله تعالى:

«والأدب هو الدين كله»، وفسر ذلك بما يسرك فانظره[1].

وبهذه التعريفات للأدب يتضح أن مقصود الأئمة، حال ذكرهم الأدب، أمران:

الأمر الأول:

الأدب العام الذى يتناول إخلاص التوحيد لله تبارك وتعالى، وشعائر الدين، وإحسان المعاملة بين الخلق بعضهم بعضًا.

والأمر الآخر:

الأدب الخاص الذى يتناول حالات مخصوصة للعبد فى هذه الدار من أكل، وشرب، وقضاء حاجات، ومعاملة بين الناس، وأخلاقًا مخصوصة حث الشارع عليها وبينها.

وبين الأدبين عموم وخصوص، وتلازم فى بعض صورهما، والمقصود فى هذا البحث بيان أهمية الأدب بمعنييه العام والخاص، مع التركيز على بعض صور تتناول الأدب بمعناه الخاص، والله أعلم.

●●●

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨٤.

أهمية الأدب وفضله وطلب الصالحين له

ليس أدل على أهمية الأدب من كثرة اهتمام العلماء والأخيار به، وحثهم على تعلمه وسلوك طريقه، وقد قيل فيه أقوال باهرة، وإرشادات فاخرة، فمن ذلك:

«كان يقال: أربعة يسود بها العبد: العلم، والأدب، والفقه، والأمانة»[1].

وقال الثورى[2]، رحمه الله تعالى:

«من لم يتأدب للوقت، فوقته مقت»[3].

أى أنه لم يتأدب ويأخذ نفسه بشعائر الأدب فحياته مكروهة عند الناس.

«وقالوا:

ليس العاقل، وإن كان تاماً، بمستغن عن الأدب والعلم اللذين هما زينته وجماله»[4].

«وقال بعض السلف:

ناهيك من شرف الأدب أن أهله متبوعون والناس تحت راياتهم، فيعطف

(١) «لباب الآداب»: ٢٢٨.

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى، أبو عبد الله الكوفى، ثقة حافظ، فقيه، عابد، إمام حجة، من رءوس المسلمين. توفى سنة ١٦١ وله أربع وستون سنة. انظر «التقريب»: ٢٤٤.

(٣) «لباب الآداب»: ٢٢٨.

(٤) «لباب الآداب»: ٢٣٢.

ربك تعالى عليهم قلوبًا لا تعطفها الأرحام، وتجتمع بهم كلمة لا تأتلف بالغلبة، وتبذل دونهم مهج النفوس»[١].

«وقال بعض الحكماء:

لا أدب إلا بعقل، ولا عقل إلا بأدب»[٢].

«وقال آخر: العقل بلا أدب كالشجر العاقر، ومع الأدب كالشجر المثمر»[٣].

«وكان يقال: العون، لمن لا عون له، الأدب»[٤].

وقال الخليفة المستظهر[٥] فيه قولاً بليغًا:

«أدب السائل أنفع من الوسائل»[٦].

وقال الإمام القرافى[٧] فى كتابه «الفروق»، وهو يتحدث عن موقع الأدب من العمل وبيان أنه مقدم فى الرتبة عليه:

---

(١) المرجع السابق: ٢٣٤.
(٢) «غذاء الألباب»: ٣٦.
(٣) «منهاج اليقين»: ٣٩٢.
(٤) «غذاء الألباب»: ٣٦.
(٥) الإمام أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد الهاشمى العباسى البغدادى، ولد سنة ٤٧٠. وكان موصوفًا بالجود وحب العلماء وأهل الدين والتفقد للمساكين مع الفضل والنبل والبلاغة وعلو الهمة وحسن السيرة، توفى سنة ٥١٢، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٣٩٦ وما بعده.
(٦) سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٣٩٨.
(٧) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجى المصري، الإمام العلامة. انتهت إليه رئاسة الفتوى على مذهب مالك، وله مصنفات سارت مسيرة الشمس، توفى بمصر سنة ٦٨٤، انظر «الديباج المذهب»: ١/ ٢٣٦ - ٢٣٩.

«واعلم أن قليل الأدب خير من كثير العمل، ولذلك قال رويم[١]، العالم الصالح، لابنه: يا بنى اجعل عملك ملحًا، وأدبك دقيقًا، أى استكثر من الأدب حتى تكون نسبته فى الكثرة نسبة الدقيق إلى الملح، فى العجين، وكثير الأدب مع قليل من العمل الصالح خير من العمل مع قلة الأدب»[٢].

«ومن فضيلة الأدب أنه ممدوح بكل لسان، ومتزين به فى كل مكان، وباقٍ ذكره على أيام الزمان»[٣].

«وكان يقال: من قعد به حسبه نهض به أدبه»[٤].

«وقال بعض الفصحاء: الأدب يستر قبح النسب»[٥].

«وقال بعض البلغاء:

الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب؛ لأن من ساء أدبه ضاع نسبه، ومن قل عقله ضل أصله»[٦].

«وقيل: الأدب فى العمل علامة قبول العمل»[٧].

---

(١) الإمام الفقيه المقرئ الزاهد العابد أبو الحسن رويم بن أحمد بن يزيد البغدادى، له أقوال حسنة، وكان شيخ الصوفية ببغداد، توفى سنة ٣٠٣. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٢٣٤ ، ٢٣٥.

(٢) نقلاً عن كتاب: «من أدب الإسلام»: ٧.

(٣) «منهاج اليقين»: ٣٩٢.

(٤) «لباب الآداب»: ٢٢٨.

(٥) المرجع السابق. (٦) المرجع السابق.

(٧) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨١.

«وقال بعض الحكماء:

أحسن الحلية الأدب، ولا أدب لمن لا مروءة له، ولا مروءة لمن لا أدب له»[١].

«وقال آخر:

يتشعب من الأدب: الشرف وإن كان صاحبه دنيّاً، والعز وإن كان صاحبه مهينًا، والقرب وإن كان صاحبه قصيّاً، والغنى وإن كان فقيرًا، والنبل وإن كان حقيرًا، والمهابة وإن كان وضيعًا»[٢].

«ورأى فيلسوف غلامًا جميلاً لا أدب له، فقال: أى بيت لو كان له أساس؟!»[٣].

«وسمع بعض الحكماء رجلاً يقول: أنا غريب، فقال له: الغريب من لا أدب له»[٤].

«وكان يقال:

ثلاثة ليس معهن غربة: مجانبة الريب، وكف الأذى، وحسن الأدب»[٥].

وقال بعض الفلاسفة:

---

(١) «لباب الآداب»: ٢٣٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) «البصائر والذخائر»: ١/ ١٢١.

(٤) «لباب الآداب»: ٢٣٤.

(٥) «تذكرة السامع»: ٢.

الأدب زيادة فى العقول، ولقاحها وغذاؤها الذى لا يحييها غيره»[١].

والعاقل إذا تدبر الأقوال المذكورة علم أهمية الأدب وفضله، وسعى لاكتسابه وسلوك طريقه؛ بغية أن يكتب من أهل الفضل والأدب.

ولقد كان السلف يحثُّون على اكتسابه، وتعلمه، والرحلة إليه.

قال الحسن[٢]، رحمه الله تعالى:

«إن كان الرجل ليخرج فى أدب نفسه السنتين ثم السنتين»[٣].

وقال مَخلَد بن الحسين[٤]، أحد عقلاء الرجال وثقاتهم، لابن المبارك، رحمهما الله:

«نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث»[٥].

«وقيل للشافعى، رضى الله عنه: كيف شهوتك للأدب؟

فقال: أسمع بالحرف منه مما لم أسمعه فتود أعضائى أن لها أسماعًا فتنعُم به.

---

(١) «لباب الآداب»: ٢٣٤.

(٢) الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى، مولى زيد بن ثابت، رضى الله عنه، كان سيد أهل زمانه وسيد التابعين علمًا وعملاً وفصاحة، توفي سنة ١١٠، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٥٦٣ - ٥٨٨.

(٣) «لباب الآداب»: ٢٢٧.

(٤) مخلد بن الحسين الأزدى المهلبى، أبو محمد البصرى، نزيل المِصِّيصة، ثقة فاضل، مات سنة ١٩١. انظر «التقريب»: ٥٢٣.

(٥) «لباب الآداب»: ٣.

وقيل: وكيف طلبك له؟

قال: طلب المرأة المضلة ولدها، وليس لها غيره»[1].

وقال ابن المقفع[2]:

«ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسِّنا من المطعم والمشرب، بأحوج منا إلى الأدب الذى هو لقاح عقولنا وصلاحه»[3].

هذه بعض الأقوال فى فضل الأدب، وطلب العلماء له، وقد سُقتها، على طولها، لتعلم أهمية الأدب فيحرص عليه، ويتسابق إليه، وليعلم أيضًا أن الساعى لطلبه ساع فى أمر رشيد، طلبه كثير من الفضلاء وحرصوا عليه، وليس هو بمبتدع ولا مضل، والله أعلم.

●●●

(١) المرجع السابق.

(٢) عبد الله بن ذادَوَيْه، أحد البلغاء والفصحاء، ورأس الكتاب وأولى الإنشاء، كان من مجوس فارس فأسلم على يد الأمير عيسى عم السفّاح، وكتب له واختص به، حدثت له حوادث أدت إلى قتله بأمر المنصور سنة ١٤٥ وعمره ست وثلاثون سنة، وقد اتهم بالزندقة من غير دليل واضح إلا ما روى عن ابن مهدى أنه قال: ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع، وهذا لا يكفى لأنه قد يكون من وضع أعدائه. وانظر فى أمره «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٣٠، و«لسان الميزان»: ٣/ ٤٤٩، طبعة دار الفكر.

(٣) «منهاج اليقين»: ٣٩٢.

عقوبة تارك الأدب

ولما كان الأدب بهذه المنزلة التى وضحتها، فى المبحث السابق، كان المفرِّط فيه وتاركُه والمتهاون به قد ارتكب أمرًا عظيمًا، وسلك طريقًا عقيمًا، ونادى على نفسه بالخسران، وباء بالإثم والعصيان، وقبل أن يهولك، أخى القارئ، ما أقوله اقرأ الآتى:

قال الجلاجلىّ البصرى[1]، رحمه الله تعالى:

«التوحيد موجب يوجب الإيمان، فمن لا إيمان له لا توحيد له، والإيمان موجبٌ يوجب الشريعة، فمن لا شريعة له لا إيمانَ له؛ ولا توحيد له، والشريعة مُوجبٌ يوجب الأدب، فمن لا أدبَ له لا شريعة له، ولا إيمان له، ولا توحيد له»[2].

وقال ابن القيم، رحمه الله تعالى:

«قال بعضهم:

الزم الأدب ظاهرًا وباطنًا، فما أساء أحدٌ الأدب فى الظاهر إلا عوقب ظاهرًا، وما أساء أحد الأدب باطنًا إلا عوقب باطنًا.

وقال عبد الله بن المبارك، رحمه الله تعالى:

---

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) «لباب الآداب»: ٢٢٧ بتوضيح الأستاذ أحمد شاكر، رحمه الله تعالى، وكلام الشيخ منصرف إلى نفى الإيمان والتوحيد الكاملين لا مطلق أصلهما، كما هو معلوم.

من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة»[1].

وقال ابن القيم، رحمه الله تعالى، فيما يشبه أن يكون قاعدة فى هذا الأمر:

«أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب، فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نجّى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة، والإخلال به مع الأم، تأويلاً، وإقبالاً على الصلاة، كيف امتُحن صاحبه بهدم صومعته، وضَرْبِ الناس له، ورميه بالفاحشة[2].

وتأمل أحوال كلٍّ شقىّ ومغترٍّ ومُدْبِرٍ كيف تجد قلة الأدب هى التى ساقته إلى الحرمان؟!

وانظر أدب الصدِّيق، رضى الله عنه، مع النبى ﷺ، فى الصلاة أن يتقدم بين يديه[3]، فقال: «ما كان ينبغى لابن أبى قحافة أن يتقدم بين يدى رسول الله ﷺ» كيف أورثه مقامه والإمامة بعده! فكان ذلك التأخر إلى خلفه، وقد أومأ إليه أن اثبت مكانك... بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قُدّام تنقطع فيها أعناق المطِىّ، والله أعلم»[4].

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨١.

(٢) يقصد ما كان من أمر جريج الراهب، . وقصته مشهورة فى الصحيح.

(٣) كذا فى الأصل، . وفى العبارة سقط، والله أعلم.

(٤) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٩١، ٣٩٢.

ويشير ابن القيم إلى الحديث المروىّ فى الصحيح أن أبا بكر أمّ الناس عندما مرض رسول الله ﷺ، فلما شعر بمجىء رسول الله تأخر ولم يرضَ أن يؤم.

«وقيل لـ«بقراط»[1]: ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له؟

قال: كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان غير الناطق»[2]، أى كالفرق بين الإنسان والحيوان؛ فإن المناطقة يطلقون على الإنسان: حيوان ناطق.

هذه النصوص تبين عقوبة المستهين بالأدب، سواءٌ أكان الأدب بمعناه العام الذى يتناول شعائر الدين كلها، أو هو الأدب بالمعنى الخاصّ الذى يتناول أحوالاً مخصوصة دلّت عليها الشريعة، ورغّبت فى سلوك الأدب فيها، وكم رأينا من أشخاص أساءوا الأدب فيما بينهم وبين الخلق فعجَّل الله عقابهم!! عافانا الله وإياكم من سوء الأدب.

●●●

(١) من حكماء اليونان وأطبائهم، وكان قبل الإسكندر بنحو مائة سنة، وكان متألهًا متفلسفًا، انظر أخباره بالتفصيل فى «نزهة الأرواح وروضة الأفراح»: ١٩٦- ٢٠٢.

(٢) «لباب الآداب»: ٢٣٣.

حاجتنا إلى الأدب

قد يتسـاءل أحد الأشخاص ممن ينظر فى عنوان الكتاب مـستغربًا متـعجلاً وهو لم يقرأه بعد:

أنحن بحاجة إلى مـثل هذا؟! أو: هل يمثل هذا مشكلة حـتى يُحتاجَ إلى تصنيف كتاب فيه؟!

وأظنه إن قرأ الكتـاب عرف أهمية الموضـوع ومدى افتقـار مجتمـعاتنا إلى تحقيق هذا السلوك فيها.

وألخص هنا فى كلمـات حاجةَ مجـتمعـنا إلى سلوك الأدب وتحقيـقه بين الأفراد، وأهميـة أن يسود هذا الخلق الكريم فيهـم؛ إذ الأدب سلوك حضارىّ مطلوب لإقامة المجتمع الصالح، وإنه لمن الدعامـات الأساسية لاجتماع الأفراد اجتماعًا سَويّاً أن يسود بينهم سلوك الأدب؛ وذلك للأسباب التالية:

أولاً: حصول الاطمئنان بين الناس:

وذلك يكون إذا اتصف الناس بمراعـاة الأدب بينهم، فحـقوقهم مـكفولة، وسمـعتهم محـترمة غـير مُشوّش عليـها، وأسمـاؤهم لا تُلاك فى المجالس، ومكانتهم ليست مُنتقصـة ولا ممسوسة بأذى، وأنه إن أخطأ أحدهم سُتر، وإن زَلّ عُذر، وإن اعتذر سُومح وقُبل.

ثانيًا: الأدب ينزع الأحقاد:

ليس شىء يؤجج الحـقد وينفخ فى ناره مثل التـعدى على الآخـرين وعدم

احترامهم، أو الشعور بأن شخصًا ما يستغل مكانة أو مركزًا أو جاهًا لإذلال الآخرين أو انتقاصهم أو التهجم عليهم، والحقد ينزع من الناس كل معانى الأخوة والألفة والمحبة، ويجعلهم أعداء يتربص بعضهم ببعض.

أما الأدب فى التعامل وإنزال الناس منازلهم، وكفالة حقوقهم فإنه يورث الألفة، وينزع البغضاء، ويسُل السَّخيمة من القلوب؛ فتصفو وتحنّ وترِقُّ فتسود المجتمعَ الأخوة والمحبة.

ثالثًا: الأدب مقياس لاستفادة الشخص من التوجيهات السلوكية لشريعة مجتمعه:

لكل مجتمع شريعة، وشريعتنا، ولله الحمد والمنة، هى الإسلام، والإسلام العظيم قد تكفّل للمجتمع بالسعادة إن اتبع الآداب التى سنّها وشرعه الله ورسوله له، فسيادة الأدب بين الناس مقياس لاستفادتهم من هذه النصوص وقَبولهم لها، وعدم تطبيق هذه الآداب السلوكية هو مؤشر خطير على عدم تقبل الناس لهذه الآداب، أو على الأقل، دلالة على إهمالها.

وأهل الرأى فى كل مجتمع يقيسون مدى كمال مجتمعاتهم ورقيّها بالقدر الذى حققه الأفراد من تطبيق دستورهم ومنهجهم، ثم يوصون، تبعًا لذلك، بتطوير أو بسن القوانين المحافظة على مجتمعاتهم ومناهجهم.

أمّا الإسلام فإنه قد أكمله الله تعالى للناس فلا يحتاج إلى نقد أو إكمال، ولكن يحتاج أهله إلى التمسك بتعاليمه لينهضوا بأنفسهم ومجتمعاتهم، ومن

أعظم التعـاليم الإسلاميـة الظاهرة التى يمكن أن يُقاس مدى تقـبل الناس لها والأخذ بهـا فى المجتمع الإسـلامى هى التعاليم الأدبـية السلوكيـة التى ترشد الناس إلى طرائق الأدب فى التعامل والسلوك، فإذا وجدتَ مـجتمعًا قد أهمل الأدب فى التعامل والسلوك فاعلم أنه لما سواه أَضْيَعُ، ولغيره من المهمات أكثر إهمالاً وإهدارًا، والله أعلم.

رابعًا: الأدب يحقق الأخوّة التى هى دعامة المجتمع الأساسية:

وهذا واضح لا لبس فيه؛ إذ أن أعظم موجبات الأخوة: الإيثار، والنَّصَفَةُ، والودّ، والأُلفة، وحـفظ اللسان، والتوفيـر، والمواساة، والشفقـة، والرحمة، وكل هذه وغيـرها هى من الآداب التى حثّ عليهـا الشارع وأخذ بهـا العلماء والصالحون.

خامسًا: الأدب طريق العلم النافع:

ما أحوج الأمـةَ اليوم إلى العلم النافع الذى يأخذ بيـدها إلى دروب التقدم والعزة والرفعة التى افتـقدتها طويلاً، والطالب للعلم، أى علم كان، لن يناله بدون أن يتـأدب أولاً، وإذا نال بعضًـا من العلم بدون تأدب؛ فسـيكون وبالاً عليه فى الدنيا والآخـرة؛ لأنه سيكون من جملة علماء السوء الذين قـال فيهم ابن المبارك، رحمه الله تعالى:

وهل أفـسـد الدينَ إلا الملوكُ ... وأحـبـارُ سُـوْءٍ ورُهبـانُهـا

وقد حذر السلف كثـيرًا من طلب العلم بدون أدب، وهاك بعضَ الكلمات النافعة فى هذا الباب:

قال الإمام البُوْشَنجى[1]:

«من أراد العلم والفقه بغير أدب فقد اقتحم أن يكذب على الله ورسوله»[2].

وقال الإمام يوسف بن الحسين الرازى[3]، رحمه الله تعالى:

«بالأدب تتفهم العلم، وبالعلم يصح لك العمل»[4].

وهذا الإمام الغزالى[5]، رحمه الله تعالى، طلب العلم فحصل له نوع من الخُيلاء والاستخفاف بالناس، ثم راض نفسه وأدّبها وهذّبها فحصل له العلم مع الأدب.

يقول عنه الإمام الذهبىّ، رحمه الله تعالى:

---

(١) الإمام العلامة الحافظ ذو الفنون شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجىّ الفقيه المالكىّ شيخ أهل الحديث فى عصره فى نيسابور، ولد سنة ٢٠٤، وارتحل شرقًا وغربًا ولقى الكبار، وجمع وصنّف، وسار ذكره، توفى سنة ٢٩١، رحمه الله تعالى، و«بوشنج» بلدة قريبة من هراة، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٣/ ٥٨١- ٥٨٩..

(٢) «سير أعلام النبلاء»: ١٣/ ٥٨٦.

(٣) الإمام العارف شيخ الصوفية، أبو يعقوب، أكثر الترحال، وكان إمام وقته، وقد امتحن بسبب كلام صدر منه، توفى سنة ٣٠٤، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٢٤٨- ٢٥١.

(٤) «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ١٥٠.

(٥) الشيخ الإمام البحر أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسى الشافعى الغزالى صاحب التصانيف والذكاء المفرط، تفقه وارتحل وصنف ثم تزهد وحج واعتزل مدة، ثم صنف كتابه المشهور «إحياء علوم الدين»، وكان خاتمة أمره الإقبال على طلب الحديث ومجالسة أهله، توفى بـ(طوس) سنة ٥٠٥هـ رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٣٢٢- ٣٤٦.

«عظُم جاه الرجل وازدادت حشمته بحيث إنه فى دَسْت[١] أمير، وفى رتبة رئيس كـبيـر، فأداه نظـره فى العلوم وممارستـه لأفـانين الزهديات إلى رفض الرئاسـة، والإنابة إلى دار الخلود، والتـألّه والإخـلاص وإصـلاح النفس... وراض نفسه وجاهدها، وطرد شيطان الرعونة[٢]، ولبس زىّ الأتقياء...

ذكر هذا وأضعافه عبد الغافر[٣] فى «السياق» إلى أن قال:

ولقد زرته مرارًا ومـا كنت أَحْدُس[٤] فى نفسى، مع ما عـهدت عليه من الزعارة[٥]، والنظر إلى الناس بعين الاستخفاف كبرًا وخيلاء، واعتزازًا بما رُزق من البسطة والنطق والذهن، أنه صار إلى الضد وتصفّى عن تلك الكدورات، وكنت أظنه متلفعًا بجلباب التكلف[٦]... فتحققت بعد السبر والتنقير[٧] أن الأمر على خلاف المظنون، وأن الرجل أفاق بعد الجنون»[٨].

وكثيرةٌ هى الأخبار الواردة عن سلفنا فى تأديب المتعلم وإرشاده إن قصّر فى الأدب، وأجتـزئ عن تلك الأخبـار بإيراد خبـرين أحدهما ذكـره الذهبىّ فى

(١) الرياسة والصدارة، «تاج العروس»: (د س ت).

(٢) الرعونة: الحمق والاسترخاء، «لسان العرب»: (ر ع ن).

(٣) عبـد الغافر بن إسمـاعيل بن عبد الغـافر الفارسى ثم النيـسابورى، الإمام العالم البـارع الحافظ صاحب كتـاب «السياق فى تاريخ نيسـابور»، ولد سنة ٤٥١ وتفقه بإمام الحـرمين حتى برع فى المذهب الشافعى، وكان فقيهًا محققًا فصيحًا أديبًا، توفى سنة ٥٢٩ رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/١٦-١٨.

(٤) أى أظن.

(٥) الشراسة وسوء الخلق، «المصباح المنير»: (ز ع ر).

(٦) أى أنه يتكلف التأدب وليس سجية له.

(٧) أى البحث والتدقيق.

(٨) «نزهة الفضلاء»: ٣/١٣٥٦.

ترجمة القاضى شَريك[1]، وهو أحد أعلام السلف، رحمه الله تعالى، حيث قال الذهبىّ:

«قال حمدان بنُ الأصبهانى[2]:

كنت عند شريك فأتاه بعض ولد المهدى[3] فاستند [أى السائل] فسأله عن حديث فلم يلتفت إليه!!، وأقبل علينا، ثم أعاد فعاد بمثل ذلك.

فقال: كأنك تستخف بأولاد الخَليفة؟

قال: لا، ولكن العلم أزين عند أهله من أن تضيعوه.

قال: فجثا على ركبتيه ثم سأله، فقال شَريك: هكذا يطلب العلم»[4].

لو جعل كل عالم وصالح عمل شريك سنةً له كم سيبقى من الناس من يخاطب أولى الفضل والعلم كأنهم رِعاع همج؟!

والخبر الثانى ذكره الذهبىّ فى ترجمة الحافظ ابن وارة الرازى[5] وكان فيه

---

(١) شريك بن عبد الله النخعى الكوفى القاضى بواسط ثم الكوفة أبو عبد الله. تغير حفظه منذ ولى القضاء بالكوفة، وكان عادلا فاضلا عابدًا شديدًا على أهل البدع، مات سنة ١٧٧، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٢٦٦.

(٢) لم أقع له على ترجمة.

(٣) المهدى هو محمد بن أبى جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على الخليفة العباسى، انظر ترجمته فى «سير أعلام النبلاء»: ٧/ ٤٠٠ وما بعدها.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٣١، ٦٣٢.

(٥) محمد بن مسلم بن عثمان الحافظ الإمام المجود، أبو عبد الله بن وارة الرازى، أحد الأعلام. مولده فى حدود سنة ٢٩٠ وارتحل إلى الآفاق، وكان يضرب به المثل فى الحفظ على تيه فيه، توفى سنة ٢٧٠، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣/ ١٠٤٧، ١٠٤٨.

زَهْوٌ وخُيَلاء، فدخل على الشاذكونى[1]، أحد أئمة الحديث، «فقعد يُقعِّر فى كلامه، فقلت له[2]: من أى بلد أنت؟

قال: من أهل الرىّ، ألم يأتك خبرى؟ ألم تسمع بنبئى؟ أنا ذو الرحلتين.

قلت: من روى عن النبى ﷺ: «**إن من الشعر حكمة**».

فقال: حدثنى بعض أصحابنا.

قلت: من؟

قال: أبو نعيم[3] وقبيصة[4].

قلت: يا غلام، ائتنى بالدِّرَّة[5]، فأتانى بها، فأمرته فضربه بها خمسين.

وقلت: أنتَ تخرج من عندى، وما آمن أن تقول حدثنى بعض غلماننا»[6].

فالشاذكونىّ، رحمه الله تعالى، لم يرضَ من ابن وارة أن يقول: «حدثنى

---

(١) العالم الحافظ البارع، أبو أيوب سليمان بن داود بن بشر المنقرى البصرى الشاذكونى. توفى سنة ٢٣٤، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٦٧٩- ٦٨٤.

(٢) القائل هو الشاذكونى.

(٣) الفضل بن دُكَين عمرو بن حماد التيمى بالولاء، أبو نعيم الملائى، ثقة ثبت، ولد سنة ١٣٠ وتوفى سنة ٢١٨، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب» ٤٤٦.

(٤) قبيصة بن عقبة بن محمد السوائى، أبو عامر الكوفى، توفى سنة ٢١٥ رحمه الله تعالى، المصدر السابق: ٤٥٣.

(٥) أى العصا.

(٦) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٩٣٦.

بعض أصحابنا» وابن وارة إمام حافظ، وإنّما أراد منه أن يقول: حدثنى بعض شيوخنا أو نحو ذلك؟!

فانظر كيف كانوا يعاقبون الأئمة الحفاظ إذا بدر منهم ما يخالف الأدب، يعاقبونهم وهم أئمة، فماذا كانوا يصنعون إذا ابتلوا بمثل ما ابتليت به الأمة فى هذا الزمان من أنصاف العلماء الذين يقدحون فى أئمة الدنيا قديمًا وحديثًا؟!

بعد هذا الذى ذكرتُ من أسباب حاجتنا إلى الأدب، فقل لى بربك:

هل نرجو لمجتمعنا سعادة وفلاحًا واجتماعًا إذا غاب عنه الأدب؟!!

أو هل نرجو له قوة ومَنَعَة إذا كان أفراده يعادى بعضهم بعضًا، ويتمنّى بعض الناس زوال من يخالفونهم واندثارهم؟!!

●●●

مراتب الأدب وتفاضل النّاس فيها

تتفاوت مراتب الأدب بحسَب المتأدَّب معه؛ إذ ليست تلك المراتب على درجة واحدة مع جميع الناس، وليس الأدب مع الله كالأدب مع أنبيائه، وليس الأدب مع الأنبياء كالأدب مع سائر الناس، وليس للتعامل مع الناس أدب واحد، بل لعلمائهم وكبارهم أدبٌ خاص يختلف عن الأدب مع سائرهم، وهكذا...

الأدب مع الله:

أما الأدب مع الله فهو رأس الأمر وعموده، وأهم ما يقدمه العبد فى دنياه، قال ابن القيّم، رحمه الله تعالى:

«قال أبو على الدقاق[1]:

العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة، ويصل بأدبه فى طاعته إلى الله»[2].

وقال ابن القيم، أيضًا، موضحًا أنواع الأدب التى ينبغى للعبد التزامها مع ربه:

«فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصة.

(١) شيخ الصوفية الحسن بن على بن محمد، أبو على الأستاذ الدقاق الزاهد النيسابورى. توفى سنة ٤٠٦، رحمه الله تعالى. انظر «الوافى بالوفيات»: ١٢/ ١٦٥.

(٢) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٧٦.

الثانى: صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادته أن تتعلق بما يمقتك عليه»[(١)].

والأدب مع الله تعالى محمود على كل حال، ولكن بعض الآداب أقرب إلى رضاه سبحانه، فقد «رُوى عن ابن سيرين[(٢)]، رحمه الله تعالى، أنه سُئل: أىُّ الآداب أقربُ إلى الله؟

فقال: معرفة ربوبيته، وعملٌ بطاعته، والحمد لله على السراء، والصبر على الضرّاء»[(٣)].

وإذا خفت ألا تستقصى جوانب الأدب مع الله تبارك وتعالى، أو أن تقصر فى بعضها فاقرأ الإرشادين الفاخرين الآتيين:

قال ابن عطاءٍ[(٤)]، رحمه الله:

«الأدب: الوقوف مع المستحسنات.

فقيل: وما معناه؟

---

(١) المرجع السابق، ومعنى النوع الثالث يدور على ترك المعاصى صغيرها وكبيرها، والله أعلم.

(٢) محمد بن سيرين الأنصارى، أبو بكر بن أبى عمرة البصرى، ثقة ثبت عابد، كبير القدر، أحد التابعين، توفى سنة ١١٠، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٤٨٣.

(٣) «لباب الآداب»: ٢٢٨.

(٤) أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله تاج الدين أبو الفضل الإسكندرانى الشاذلى، كانت له جلالة عجيبة ووقع فى النفوس ومشاركة فى الفضائل، وقد صحبه الصوفية فى زمانه، وقد بالغ فى القيام على شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمهما الله تعالى، توفى كهلاً سنة ٧٠٩، انظر «الدرر الكامنة»: ١/ ٢٩١- ٢٩٣.

قال: إن تعامل الله تعالى بالأدب سراً وإعلانًا، فإذا كنت كذلك كنت أديبًا»[1].

وقال ابن القيم، رحمه الله تعالى:

«لا يستقيم لأحد الأدبُ مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره، ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقَبول الحق علمًا وعملاً وحالاً»[2].

وبهذه الأقوال المتقدمة يتبين لنا أن أهم جوانب الأدب على الإطلاق هى التأدب مع الله سبحانه وتعالى، خاصة فيما يتعلق بتعريف ابن القيم، رحمه الله تعالى، الأخير للأدب، فصار الأدب بهذا التعريف رأسَ مالِ المسلم فى هذه الحياة، وهو والله كذلك.

إذ ما الذى يرجوه فى الآخرة رجلٌ أساء أدبَه مع الله تبارك وتعالى؟!، وهل يُرجى من مسيء الأدب مع الله سبحانه أنه يُحسن أدبه مع خلقه؟! فإن فعل فهو من التائهين الضالين، وقد رأيت أشخاصًا كثيرين يحرصون على كمال التأدب مع الخلق حتى أنهم يلتزمون، لأجل ذلك، قواعد ما يسمّى بـ«الإتيكيت» رجاء حصول ذلك لهم، فإذا نظرت لأدبهم مع الخالق تجده مختلاً اختلالاً عظيمًا، وهذا من أعظم الغُبْن والتضييع.

الأدب مع رسول الله ﷺ:

وأما الأدب مع رسول الله ﷺ فهو كما قال ابن القيم:

(١) «لباب الآداب»: ٢٢٧.

(٢) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨٧.

«كمال التسليم له، والانقياد لأوامره، وتلقى خبره بالقبول والتصديق»[1].

«ومن الأدب مع الرسول ﷺ ألا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهى، ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو، وينهى ويأذن، كما قال تعالى:

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات: ١].

وهذا باقٍ إلى يوم القيامة ولم ينسخ، فالتقدم بين يدى سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه فى حياته»[2].

هذا الأدب الذى تحدّث عنه ابن القيم، رحمه الله تعالى، هو الأدب مع سنة النبىّ ﷺ بمعناها العام الذى يشمل الدين كله.

أما الأدب مع شخصه الشريف، فقد كان الأئمة يعظمون رسولَ الله ﷺ ويتأدبون معه حال سماع اسمه الشريف ﷺ، فقد «كان مالك، رضى الله عنه، إذا ذكر النبىّ ﷺ يتغير وينحنى.

وكان جعفر بن محمد [الصادق][3] إذا ذكر النبىّ ﷺ عنده اصفرّ لونه.

وكان ابن القاسم[4] إذا ذكر النبىّ ﷺ يجف لسانه فى فيه هيبة لرسول الله ﷺ»[5].

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨٧.

(٢) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨٩.

(٣) شيخ بنى هاشم، ولد سنة ٨٠ ورأى بعض الصحابة، وحدث عنه خلق، وهو ثقة. كذب عليه الرافضة كثيرًا وكان يمقتهم ويتبرأ منهم. توفى سنة ١٤٨ رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٢٥٥- ٢٧٠.

(٤) عبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتقى، أبو عبد الله المصرى، الفقيه صاحب الإمام مالك، ثقة، مات سنة ١٩١ رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٣٤٨.

(٥) «تذكرة السامع»: ٢١، ٢٢.

أما حالنا اليوم فإن شأن الكثيرين أن يقولوا: قال محمد كذا، وسنة محمد كذا، ولا يظهرون أى تأدب مع الاسم الشريف.

قال ابن كثير[١]، رحمه الله تعالى:

«قال الضحاك[٢] عن ابن عباس:

كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظامًا لنبيه ﷺ، قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبىّ الله، وهكذا قال مجاهد[٣]، وسعيد بن جبير[٤].

وقال قتادة[٥]:

أمر الله أن يُهاب نبيُّه ﷺ وأن يُبجّل وأن يُعظّم ويسوّد...

---

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير البصرى القرشى الدمشقى الإمام، ولد سنة ٧٠٠، وسمع من المشايخ، واشتغل بالحديث والتفسير والتاريخ، وله عدة مصنفات سارت فى البلاد، توفى بدمشق سنة ٧٧٤ بعد أن عمى، انظر «الدرر الكامنة»: ١/ ٣٩٩، ٤٠٠.

(٢) الضحاك بن مزاحم الهلالى، أبو محمد، كان من أوعية العلم، اختلف فى لقيه ابن عباس، وأكثر أهل العلم على أنه لم يلقه، كان مقره ببلخ وسمرقند، توفى سنة ١٠٢، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٥٩٨- ٦٠٠، و«التقريب»: ٢٨٠.

(٣) مجاهد بن جبر المكى أبو الحجاج المخزومى بالولاء، ثقة، إمام فى التفسير وفى العلم، مات سنة ١٠١ عن ٨٣ سنة، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٥٢٠.

(٤) الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الوالبى بالولاء الكوفى، قرأ القرآن على ابن عباس، رضى الله عنهما، وقتله الحجاج سنة ٩٥ لخروجه فى فتنة ابن الأشعث، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٣٢١- ٣٤٣.

(٥) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسى أبو الخطاب البصرى. ثقة ثبت، يقال ولد أكمه، أخرج عنه أصحاب الكتب الستة. توفى سنة بضع عشرة ومائة، انظر «التقريب»: ٤٥٣.

وقال مقاتل[1] فى قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾ [النور: ٦٣].

يقول: لا تسمّوه إذا دعوتموه: يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه، فقولوا: يا نبى الله، يا رسول الله».

ثم ذكر ابن كثير أن «هذا كله من باب الأدب فى مخاطبة النبى ﷺ والكلام معه وعنده»[2].

وكان الأئمة يحرصون على الأخذ عن المتأدب مع النبى ﷺ، فقد قال مالك، رحمه الله تعالى:

«رأيت أيوب السختيانى[3] بمكة حجتين، فما كتبت عنه، ورأيته فى الثالثة قاعدًا فى فناء زمزم، فكان إذا ذكر النبى ﷺ عنده يبكى حتى أرحمه، فلما رأيت ذلك كتبت عنه»[4].

فانظر إلى أدب مالك وأيوب، رحمهما الله تعالى، حال ذكر اسمه الشريف ﷺ، فكيف إذًا يكون أدبهم مع سنته وشرعه ﷺ؟!

---

(١) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى الخراسانى، أبو الحسن البلخى، نزيل مرو، اتهم بالكذب والتجسيم وهُجِرَ، توفى سنة ١٥٠، انظر «التقريب»: ٥٤٥.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ٦/ ٦٦- ٦٨.

(٣) أيوب بن أبى تميمة كيسان السختيانى، أبو بكر البصرى، ثقة ثبت حجة، من كبار الفقهاء العباد، مات سنة ١٣١ عن خمس وستين سنة، انظر «التقريب»: ١١٧.

(٤) «صفحات فى أدب الرأى»: ٥٤، ونقله المصنف عن مقدمة «إسعاف المبطا» للسيوطى، رحمه الله.

أما اليوم فقد قل هذا الأدب وندر المتمسكون به حتى أنه قد أفتى بعض الأفاضل، وآسف لخرق أسماعكم بهذا الهراء، بأنه ليست لرسول الله ﷺ منة فى رقابنا، وإنما المنة لله وحده، ونسى قوله الأنصار، رضى الله عنهم: «لله ولرسوله المن والفضل»[1]، قالوا ذلك عندما عاتبهم رسول الله ﷺ بعد توزيع غنائم حنين، ونسى قول رسول الله ﷺ: «**إن من أمن الناس علىّ فى صحبته، وماله، أبا بكر**»[2].

فإذا أثبت رسول الله ﷺ منة لفرد من أمته عليه ﷺ أفلا يكون له المنة علينا وهو خير البشر؟ بأبى هو وأمى ﷺ؟!

وقد وصل بعض الناس، بدعوى عدم الغلو فى إطراء الرسول ﷺ ومحبته، إلى الجفاء فى شأن هذا الرسول العظيم، وذلك أنه عندما عزى أحدهم بوفاة قريبه وأمر بأن يتذكر مصيبة الناس برسولهم ﷺ لتهون عليه مصيبته، وهذه سنة أخبرنا بها ﷺ قبل وفاته، عندما عُزى بذلك نبز المعزى بأنه صوفى مبتدع.

ولا أدرى ما شأن الصوفية والابتداع بهذا العمل الذى هو مشروع مسنون؟! لكن مرجع ذلك إلى الجفاء والجهل، عافانا الله وإياكم منهما.

الأدب مع الخلق:

وأما الأدب مع الخلق فهو متفاوت، كما أسلفت، فلا بد من أن يعامل كل واحد بما يليق به، قال ابن القيم، رحمه الله تعالى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، وقال صاحب «مجمع الزوائد» ١٠/ ٣٣: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق، وقد صرح بالسماع» اهـ. بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخارى، باب فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم.

«فمع الوالدين أدب خاص، وللأب منها أدب هو أخص به، ومع العالم أدب غير أدبه مع أصحابه وذوى أنسه، ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته»[1].

وقال ابن المقفع، رحمه الله تعالى:

«وعلى العاقل أن يجعل الناس طبقتين مختلفتين متباينتين، ويلبس لهما لباسين مختلفين.

فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض، وانحجاز، وتحفظ فى كل كلمة، وخطوة.

وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد، ويلبس لباس الأنسة واللطف والبذلة والمفاوضة، ولا يدخل فى هذه الطبقة إلا واحد من ألف كلهم ذو فضل فى الرأى، وثقة فى المودة، وأمانة فى السر، ووفاء بالإخاء»[2]

وما آفة الناس إلا أن يُسووا بين الناس كلهم فى الانبساط أو الانقباض.

ولله در الإمام الشافعى حيث يرشد تلميذه الإمام يونس بن عبد الأعلى[3] فيقول:

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٩٠.

(٢) «الأدب الصغير»: ٢٢٨.

(٣) «يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة الصدفى، أبو موسى المصرى، ثقة، توفى سنة ٢٦٤ وله ست وتسعون سنة، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٦١٣.

«يا يونس، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط»[1].

الأدب مع النفس:

وأما أدب الإنسان مع نفسه فهو كذلك متنوع متفاوت، قال ابن القيم، رحمه الله تعالى:

«فللأكل آداب، وللشرب آداب، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب، وللبول آداب، وللكلام آداب، وللسكوت والاستماع آداب»[2].

وهذا الأدب قد أكثر الأئمة من التصنيف فيه والتنبيه عليه، وقد جاءت فيه آيات وأحاديث كثيرة تحث عليه وتأمر به.

تلك كانت جملة من آداب الناس مع الخالق، ومع الرسول ﷺ، ومع البشر، وآدابهم فى أنفسهم خاصة.

●●●

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٤١.

(٢) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٩٠.

تفاوت البشر في مراتب الأدب

ولمّا كان البشر يتفاوتون في تحقيق هذه الآداب تفاوتًا بينًا، فقد اختلفت مراتبهم تبعًا لذلك، وارتفعت أقدارهم أو انخفضت بموجب ما قرروه من آداب في أنفسهم ومن ثمّ التزموها وعملوا على تزيين حياتهم بها.

قال أبو نصر الطُّوسيُّ السرّاج[1]، رحمه الله تعالى:

«الناس في الأدب متفاوتون، وهم على ثلاث طبقات:

أهل الدنيا، وأهل الدين، وأهل الخصوصية من أهل الدين.

فأما أهل الدنيا فإن أكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة، وحفظ العلوم، وأسمار الملوك، وأشعار العرب، ومعرفة الصنائع.

وأما أهل الدين فإن أكثر آدابهم في رياضة النفوس، وتأديب الجوارح، وطهارة الأسرار، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، واجتناب الشبهات، وتجريد الطاعات، والمسارعة إلى الخيرات.

وأما أهل الخصوصية فإن أكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعقود بعد العهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر،

(١) عبد الله بن علي السراج الطوسيّ، أبو نصر، صاحب كتاب «اللمع في التصوف»، توفي سنة ٣٧٨ رحمه الله تعالى، انظر «كشف الظنون»: ٢/ ١٥٦٢.

واستواء السرِّ مع الإعلان، وحسن الأدب فى مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القُرب»[1].

إذا عُلم هذا فينبغى للعاقل أن يضع هذه المراتب الأربع نصب عينه دومًا: الأدب مع الله سبحانه، والأدب مع رسوله ﷺ، والأدب مع الخلق، والأدب مع النفس، ومن ثم يحرص على بلوغ الدرجة العليا فى كل من هذه المراتب حتى يسعد دنيا وأخرى.

فإن الأدب على الأديب أجمل من الحلىِّ على المرأة الجميلة، هذا فى الدنيا.

أما فى الآخرة فإن الأدب فى معناه العام، الذى هو الأدب فى أخذ الدين كله هو الذى يرفع صاحبه درجات، جعلنا الله وإياكم من أهل الأدب.

●●●

(١) «لباب الآدب»: ٢٣١، و«مدارج السالكين»: ٢/ ٣٧٧.

صور من حسن الأدب

لم يكن بدٌّ من النظر إلى أحوال الصالحين لمعرفة أدبهم، ومقدار الكمال الذى وصلوا إليه فى هذا الباب، فإنه مما يعين طالب الأدب على تحقيق مطلوبه معرفة ذلك والاطلاع عليه، ومن ثم محاولة التزامه والتحلى به.

أولاً: أدب الأنبياء الكرام:

سادات الصالحين هم الأنبياء، وسيدهم هو رسول الله محمد ﷺ، وقد كان لأدبه الرفيع وحسن خلقه أعظم الأثر فى كمال بناء دولة الإسلام الأولى، وكفى بالله واصفًا له:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ويحدثنا ابن القيم وشيخه شيخ الإسلام عن مشهد علوى جليل، مشهد من مشاهد المعراج يظهر فيه مدى تأدب النبى ﷺ مع ربه سبحانه:

«جرت عادة القوم أن يذكروا فى هذا المقام قوله تعالى عن نبيه ﷺ حين أراه ما أراه:

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، وأبو القاسم القشيرى[1] صدّر باب الأدب بهذه الآية، وكذلك غيره.

(١) الشيخ الإمام الزاهد عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيرى الشافعى، المفسر، صاحب «الرسالة»، ولد سنة ٣٧٥، وكان عديم النظير فى السلوك والتذكير، لطيف العبارة، طيب الأخلاق، له عدة مصنفات، توفى بنيسابور سنة ٤٦٥، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ٢٢٧- ٢٣٣.

وكأنهم نظروا إلى قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام؛ إذ لم يلتفت جانبًا، ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمال الأدب، والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وشماله أو يتطلع أمام المنظور، فالالتفات زيغ، والتطلع إلى ما أمام المنظور طغيان ومجاوزة.

فكمال إقبال الناظر على المنظور أنه لا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة ولا يتجاوزه.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية، قدس الله روحه»[1].

ثم قال: «فإنه أقبل على الله بكليته، وللقلب زيغ وطغيان، كما للبصر زيغ وطغيان، وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتًا عن الله إلى غيره، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذى أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذى لا يلحقه فيه سواه»[2].

وقال ابن القيم أيضًا، مبينًا أدب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام:

«وتأمل أحوال الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به.

قال المسيح، عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: ١١٦]، ولم يقل: لم أقله، وفرق بين الجوابين فى حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسرِّه فقال:

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ [المائدة: ١١٦].

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨٢.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٨٣.

ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه فقال:

﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرُّده بعلم الغيوب كلها فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ثم أفاض ابن القيم، رحمه الله، فى ذكر معانى الأدب فى هذه القصة[1].

ثم عَرَّج على قصة إبراهيم، عليه الصلاة السلام، فذكر ما فى خطابه ربَّه من الأدب فقال:

«وكذلك قولُ إبراهيم الخليل ﷺ:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٠]، ولم يقل: وإذا أمرضنى؛ حفظًا للأدب مع الله».

كذلك عرج ابن القيم، رحمه الله تعالى، على قصة موسى، عليه الصلاة والسلام، حيث قال:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، ولم يقل: أطعمنى.

وقول آدم عليه السلام:

(١) انظر «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٧٨، ٣٧٩.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولم يقل: رب قدرت علىّ وقضيت علىّ.

وقول أيوب، عليه السلام:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ولم يقل: عافنى واشفنى.

وقول يوسف لأبيه وإخوته:

﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يقل: أخرجنى من الجُب، حفظًا للأدب مع إخوته ألا يُخجلهم بما جرى فى الجب.

وقال: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يقل: رفع عنكم جهد الجوع والحاجة؛ أدبًا معهم.

وأضاف ما جرى إلى السبب ولم يُضفه إلى المباشر الذى هو أقرب إليه منه[1] فقال:

﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]، فأعطى الفُتُوَّة والكرم والأدب حقه.

ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم»[2].

(١) أى إخوة يوسف.

(٢) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨٠، ٣٨١.

وقد أورد الإمام فخر الدين الرازى[1] قصة موسى، عليه الصلاة والسلام مع الخضر، رضى الله عنه، ثم استنبط منها عبرًا وفوائد، فكان مما استنبطه من القصة عدد من آداب الخطاب التى استعملها، عليه الصلاة والسلام، لمخاطبة الخضر، رضى الله عنه، قال الفخر، رحمه الله تعالى:

«اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى، عليه السلام، راعى أنواعًا كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر.

فأحدها: أنه جعل نفسه تبعًا له لأنه قال: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ**﴾ [الكهف: ٦٦].

وثانيها: أنه استأذن فى إثبات هذه التبعية فإنه قال: هل تأذن لى أن أجعل نفسى تبعًا لك، وهذا مبالغة عظيمة فى التواضع.

وثالثها: أنه قال: ﴿**عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ**﴾ [الكهف: ٦٦]، وهذا إقرار له على نفسه بالجهل[2] وعلى أستاذه بالعلم.

ورابعها: أنه قال: ﴿**مِمَّا عُلِّمْتَ**﴾، وصيغة (من)[3]. للتبعيض، فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضًا مشعر بالتواضع كأنه يقول له: لا أطلب منك أن تجعلنى مساويًا فى العلم لك، بل أطلب منك أن تعطينى

(١) محمد بن عمر بن الحسن التيمى البكرى، إمام المتكلمين، ولد سنة ٥٤٣، واشتغل على والده وغيره، وانتشر اسمه وقصد من الأرض لطلب العلم، وكانت له اليد الطولى فى الوعظ باللسانين العربى والفارسى. توفى بهراة سنة ٦٠٦ رحمه الله تعالى، انظر «طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/ ٨١- ٩٦.

(٢) أى بالجهل فى المسائل التى اختص بها الخضر، ولو عبّر الرازى بغير هذه الكلمة لكان أولى.

(٣) من داخلة فى قوله: «ممّا».

جزءًا من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغنى أن يدفع إليه جزءًا من أجزاء ماله.

وخامسها: أن قوله: ﴿**مِمَّا عُلِّمْتَ**﴾ اعتراف بأن الله علّمه ذلك العلم.

وسادسها: أن قوله: ﴿**رُشْدًا**﴾ طلب منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذى لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال.

وسابعها: أن قوله: ﴿**تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ**﴾ معناه أنه طلب منه أن يعلمه بمثل ما علمه الله منه، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك علىّ عند هذا التعليم شبيهًا بإنعام الله تعالى عليه فى هذا التعليم، ولهذا المعنى قيل: أنا عبد من تعلمت منه حرفًا.

وثامنها: أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلاً لذلك الغير، فإنا إذا قلنا: لا إله إلا الله، فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة، فلا يجب كوننا متبعين لهم فى ذكر هذه الكلمة، لأنا لا نقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوها، بل إنما نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها، أما إذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله ﷺ فإنما أتينا بها لأجل أنه، عليه الصلاة والسلام، أتى بها، لا جرم كنا متابعين فى فعل هذه الصلوات لرسول الله ﷺ، إذا ثبت هذا فنقول قوله: ﴿**هل أَتَّبِعُكَ**﴾ يدل على أنه يأتى بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتيًا بها، وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه فى أول الأمر التسليم وترك المنازعة والاعتراض.

وتاسعها: أن قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقًا فى جميع الأمور غير مقيد بشىء دون شىء.

وعاشرها: أنه ثبت بالأخبار أن الخضر عرف أولاً أنه[1] نبىٌّ بنى إسرائيل، وأنه هو موسى صاحب التوراة، وهو الرجل الذى كلمه الله عز وجل من غير واسطة، وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثم إنه، عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة، والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع، وذلك يدل على كونه عليه السلام، آتيًا فى طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به؛ لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشدَّ، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد.

والحادى عشر: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ فأثبت كونه تبعًا له أولاً، ثم طلب ثانيًا أن يعلمه، وهذا منه ابتداء بالخدمة، ثم فى المرتبة الثانية طلب منه التعليم.

والثانى عشر: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئًا كأنه قال: لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه، ولا غرض لى إلا طلب العلم»[2].

ثانيًا: أدب الصالحين[3]:

أما أدب سائر الصالحين فأمر عُجاب، يعجب المرء منه ثم يزول عجبه

(١) أى موسى، عليه الصلاة والسلام. (٢) «مفاتيح الغيب»: ١١/ ١٥٢.

(٣) هذه الصورة الثانية لصور من حسن الأدب.

عندما يعلم أن هذا الأدب الذى تَحلَّوْا به هو ميراث المصطفى ﷺ وصحبه الكرام.

وفى التاريخ الإسلامى نماذج عطرة من أدبهم، فهذا العباس -رضى الله عنه- يُسأل:

«أنت أكبر أو النبى ﷺ؟

قال: هو أكبر، وأنا ولدت قبله!!»[1].

فهذه دقيقة فى الأدب قلما يُلتفت إليها؛ إذ لو قال العباس -رضى الله عنه- أنا أكبر منه لأوهم كبَر المقام، ومُراده كبر السن.

وقد ورث منه ابنه العالم البحر عبد الله بن العباس الأدب، فقد قام إلى زيد بن ثابت فأخذ له بركابه، فقال زيد: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا[2].

هذا وابن عباس من كبار علماء الصحابة، رضى الله عنهم، ومع ذلك فإنه يقول لزيد، رضى الله عنه: هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا.

وقال أبو زرعة[3]:

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ١/ ١٠٩.

(٢) المصدر السابق: ١٠/ ١٧٥.

(٣) عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد، أبو زرعة الرازى إمام حافظ، ثقة مشهور، مات سنة ٢٦٤ وله أربع وستون سنة، انظر «التقريب»: ٣٧٣.

«كنت عند أحمد بن حنبل، فذُكر إبراهيم بن طهمان[١]، وكان متكئًا من علة، فجلس، وقال: لا ينبغى أن يُذكر الصالحون فيُتكأ»[٢].

وقال إبراهيم بن الأشعث[٣]:

«رأيت سفيان بن عُيَيْنة[٤] يقبل يد الفُضيل[٥] مرتين»[٦].

وجاء الإمام مسلم بن الحجاج[٧] إلى الإمام البخارى[٨]، رحمهما الله تعالى، فقال له:

(١) إبراهيم بن طَهْمان الخراسانى، أبو سعيد، سكن نيسابور ثم مكة، ثقة، توفى سنة ١٦٨، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٩٠.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٦٦.

(٣) إبراهيم بن الأشعث البخارى خادم الفضيل بن عياض، له ترجمة موجزة فى «الجرح والتعديل»: ٢/ ٨٨.

(٤) الإمام سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى، أبو محمد الكوفى ثم المكى، ثقة حافظ، فقيه إمام حجة، أبو محمد الكوفى ثم المكى، ثقة حافظ، فقيه إمام حجة، توفى سنة ١٩٨ وله ٩١ سنة، انظر «التقريب»: ٢٤٥.

(٥) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى، أبو على الزاهد المشهور، أصله من خراسان وسكن مكة، ثقة، عابد إمام، مات سنة سبع وثمانين ومائة، انظر «التقريب»: ٤٤٨.

(٦) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٩٠٣.

(٧) الإمام الكبير الحافظ مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى، ولد سنة ٢٠٤، وسمع على خلق وسمع منه خلق كثير، توفى سنة ٢٦١ بنيسابور رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٢/ ٥٥٧- ٥٨٠.

(٨) الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجُعفى بالولاء، ولد سنة ١٩٤ ببخارى، وطلب العلم صغيرًا، ثم ارتحل وعمره ١٦ سنة، وابتدأ التصنيف وعمره ١٨ سنة، وله مصنفات نفيسة، وهو أحد حفاظ الإسلام الكبار، توفى سنة ٢٥٦ فى خرتنك، قرية من أعمال سمرقند، ودفن بها رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٢/ ٣٩١- ٤٧١.

«دعنى أُقبِّل رجليك يا أستاذ الأستـاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث فى علله»[1].

●●●

(١) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٩٤.

ذكر أنواع من الأدب تمس الحاجة إليها

قد أكثر العلماء والأدباء من الكتابة فى الأدب، وصنفوا فيه مصنفات مطولة وموجزة، ضمنوا فيها مئات الأنواع من الأدب فى مختلف الحالات التى يُحتاج فيها إليه، فمن أدب شخصى سلوكى تدرج من أدب دخول بيت الخلاء إلى أدب تعامل الناس فيما بينهم على تنوعه واختلافه.

واهتم الإسلام العظيم، من جملة اهتماماته العظيمة، بأدب العبادات والمعاملات، ويكفى فى هذا أن الإمام ابن القيم، رحمه الله تعالى، قد أوصل الآداب فى الصلاة فقط إلى مائة أدب[1]، وفى هذا كفاية لما مهدت لذكره، ألا وهو صعوبة الإتيان، فى هذا البحث، بالآداب جميعها التى سنها الإسلام العظيم، وكثير من الآداب التى سنها وعمل بها رجالاته العظام.

ولذلك رأيت أن آتى ببعض الآداب التى أظل أن بعضًا منها قد ينقصنا أو قد يغيب عنا، فالمجىء بتلك الآداب المختارة مختصرة ومركزة سوف يعين، إن شاء الله تعالى، على إتمام مقصود البحث، لا سيما أننى سأذكر حال عرضى لتلك الآداب بعض الوقائع التى تنافى الأدب المذكور والتى هى، عندى، موثَّقة، قد عايشت بعضها، وسمعت ببقيتها سماعًا موثقًا.

ولست أريد من ذكرها تعميق الجروح أو التركيز على الآلام، ولكنى أريد

(١) «مدارج السالكين» ٢/ ٣٩٢.

أن نعتبر فنرتفع بإخائنا عن هذا المستنقع الأسن، ولذلك حرصت على ألا أسمى شخصًا أو أذكر من صفاته وأحواله ما قد يُشيع معرفته عند الناس، والله أعلم بنيتى وقصدى.

وسأحرص حال ذكرى لبعض أنواع الأدب وأمثلته على عدم سلوك المسالك الموصلة إلى تحقيقها، سأحرص على ألا آتى إلا بما هو واقع فى مجتمع أهل الفضل والمستمسكين بهذا الدين الداعين إليه، وأما مجتمعات العوام والرعاع فإن أمرهم أهون من هذا؛ إذ قد فُرغ من عدم اعتبارهم فى مثل هذا الباب، ويجب الحكم على المجتمع بحال صفوته ومُقَدَّميه لا حال الرعاع والهمج فيه، لئلا يُظلم أهل الفضل فى تقويم أحوالهم بما عليه سائر الناس، والله أعلم.

أولاً: أدب الخلاف:

قد كُتب فى هذا الأدب الرفيع عددٌ من الكتب، وقَعَّد علماؤنا الأوائل كثيرًا من القواعد التى كانت دليلاً وهاديًا للأجيال على مر العصور، فعاش أسلافنا من أهل السنة والجماعة فى وئام ووفاق مُرضٍ إلى حدٍّ كبير.

وفى هذا العصر تأجَّج الخلاف وعظم بين أفراد الأمة، هذا الخلاف الذى له جذور تاريخية، ومؤثرات عصرية، من أهمها قوة وسائل الإعلام التى ربطت بين أرجاء العالم الإسلامى فأصبحت الفتاوى المختلفة، والتقريرات المؤثرة من المحيط إلى المحيط تنتقل فى اليوم نفسه، أحيانًا إلى المسلمين مسببة لهم كثيرًا من البلبلة وعدم الاتفاق نظرًا لاختلاف المدارس الفقهية والعقدية التى كانت محصورة، فيما مضى، فى مجتمعات محددة ومعروفة، وإن كتب لها

الانتشار، فإنه فى حدود ضيقة، وفى أوساط علمية محددة، وليس بين عوام المسلمين كما يحصل اليوم.

ويؤجِّج من هذا الخلاف، أيضًا، بروز كثير من الناشئة الذين ليس عندهم العلم الكافى ولا الخبرة للتصدى لأمر عظيم ألا وهو التوجيه الإسلامى للمجتمع فى كل مناحيه وليس فى الفتاوى فحسب، فكان مما صنعه هؤلاء الناشئة أن ساهموا، بقوة، فى تعميق الخلاف بين المسلمين، بل إثارة جذور الخلاف الماضى الذى ظن أنه قد فرغ من البحث فيه.

كل ذلك أدى إلى أن يفزع العلماء والمفكرون إلى كتابة عشرات الأبحاث التى عالجت، على الورق، كثيرًا من الجوانب المهمة، ولا زالت تلك الأبحاث بحاجة إلى التطبيق العملى الذى، بدون تشاؤم، يتعثر كثيرًا نتيجة لعوامل كثيرة لا سبيل لذكرها فى هذا البحث الموجز.

وإليك، أخى القارئ، بعض الوقائع المؤلمة التى تَشِى بما عليه مجتمعنا من سوء تطبيق، فى أحيان كثيرة، لهذا الأدب الرفيع، وغرضى من ذكر هذه الوقائع أن نعتبر بها فنعف عن أمثالها ونزجر من يجرؤ على ارتكابها:

١- إمام فى مسجد يتقدم ليؤم الناس فيأتى شخص من خلفه ليعيقه عن التقدم بطريقة فظة غليظة، ويأخذ مكانه إمامًا للناس بحجة أنه أولى منه بالإمامة، علمًا بأنه لا يحفظ القرآن، وذلك الإمام المنحى هو الحافظ المجيد، وقد تم ذلك نظرًا للخلاف بينه وبين الإمام فى بعض الجوانب التى ظن أنه لا يسوغ غفرانها والمسامحة فيها، أما حال المصلين وما

سيحدثه ذلك التصرف فيهم وفيمن سمع الحادثة فذلك آخر اهتمامات ذلك الرجل المريض.

٢- رجل يشى باجتماع برىء لأحد التجمعات الإسلامية التى اختلف معها اختلافًا لا يؤديه إلى فعل ذلك شرعًا وعقلاً، ولكن أدب الخلاف اضمحل عنده ووصل إلى درك سحيق جعله يرتكب تلك الفعلة الدنيئة عرفًا، الآثمة شرعًا.

٣- رجل تتلمذ على شيخ ودرس القرآن وبعض العلوم على يديه، فهو إذًا شيخه وأستاذه، فكان أن اختلف معه فى مسألة، قد فرغ من أنه يسوغ فيها الخلاف، فما كان منه إلا أن نفض يديه من أستاذه وشيخه وأصبح همه الوحيد هو التشهير به عند الخاصة والعامة، بل سعى بكل جهده أن يخرج أستاذه من مسجده الذى هو إمامه فتكللت مساعيه، غير الحميدة، بالنجاح.

٤- اتفق مجموعة من صالحى الدعاة مع مدير مدرسة أن يتخذوا من مدرسته مركزًا صيفيًا لاستيعاب الطلاب وحفظهم من الزيغ والملل، فما كان من فئة مريضة إلا أن حذرت المدير من إخوانهم الذين اختلفوا معهم فى بعض الجوانب التى يسوغ فيها الخلاف، وخوفته عاقبة ضلال إخوانهم، وتأثيرهم السيئ على الطلاب فى زعمهم، وهو محض افتراء، فتوجس المدير خوفًا، ومعه كل الحق فى الخوف على الطلاب الذين هم أمانة فى عنقه يسأل عنها يوم القيامة، وقام بسحب موافقته السابقة، وأوكل إدارة المركز لمن وشوا بإخوانهم ظلمًا وبهتانًا، فهل رأيتم كيف يصل الأمر بمن فرط فى مراعاة أدب الخلاف؟!!

هذه بعض الصور المؤلمة التى لا يستطيع القلب أن يسترسل فى ذكرها وبيانها، ولولا الحاجة إلى التنبيه عليها، ليُحذر من مثيلاتها، ما ذكرتُها.

ولو ذكرت صور أدب الخلاف عند سلفنا لأطلت وأتيت بالعجب، ولكن حسبى من ذلك أن أورد مثالين ذكرهما الحافظ الذهبى، رحمه الله تعالى، أما الأول:

فقد «قال يونس الصدفى: ما رأيت أعقل من الشافعى، ناظرته يومًا فى مسألة، ثم افترقنا، ولقينى فأخذ بيدى، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق فى مسألة.

قلت [أى الذهبى]: هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون»[(١)].

والآخر ما قاله أحمد بن حفص السعدى[(٢)]: «سمعت أحمد بن حنبل يقول: لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق[(٣)]، وإن كان يخالفنا فى أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضًا»[(٤)].

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٤٢.

(٢) له ترجمة موجزة فى «ميزان الاعتدال»: ١/ ٩٤١ فانظرها.

(٣) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلى النيسابورى المعروف بابن راهويه، الإمام الكبير، شيخ المشرق سيد الحفاظ، أبو يعقوب، ولد سنة ١٦١، وسمع من خلق وسمع منه خلق كثير، كان عاقلاً عظيم الحفظ عالمًا فقيهًا، من أئمة الاجتهاد، توفى سنة ٢٣٨، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١١/ ٣٥٨-٣٨٣.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٨٤٠.

ثانيًا: أدب الإعذار واجتناب سوء الظن:

هذا الأدب من أعظم الآداب المحافظة على بنية المجتمعات واستمرار الوئام فيها، ويكفى أن هذا الأدب قد شرعه الله تعالى حيث قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ [الحجرات: ١٢].

ولا وفاق ولا وئام ولا محبة بدون ترسيخ هذا الأدب العظيم بين أفراد المجتمع.

وليس من غرض هذا البحث إلا أن يؤكد على هذا الأدب ويبرز بعض الأحداث المخالفة له للاعتبار والعظة، أما قواعد هذا الأدب وطرائق تطبيقه فله مجال آخر.

وهذه صور من الإخلال بهذا الأدب:

١- سئل رجل عن رأيه فى الإمام الفلانى، فأبدى ما يفهم منه أنه مبتدع؛ وعندما سئل عن السبب قال: إنه قد «شم» من حديثه البدعة!، وكان هذا هو السبب لهذه الوصمة لا غير، وهذا الرجل المسئول مقدم عند بعضهم مسموع الكلمة فيهم.

فبربكم هل سمعتم عن جرح مبنى على مثل هذا الهراء؟!!

٢- دافع عالم فاضل عن فئة أخطأت بعض معالم المنهج الصحيح، ولكنها لا زالت فى دائرة السنة والجماعة، وكان دفاعه ذلك بسبب أن واحدًا من المشايخ أفرط فى ذمهم إلى الغاية، فظن المفرط أن هذا العالم منهم فأكد له أنه على خلاف ذلك، وأنه لا يسلك مسلكهم، فلم يعتمد إلا ما ظنه

وارتآه، فسلك فى الوشاية بهذا الفاضل مسالك أدت إلى إبعاده عن مواقع قيادية فى حياته العلمية.

٣- رجل تقدم لامتحان إلى لجنة من اللجان، فسئل: أين حفظت القرآن؟ ومن هم رفقتك؟ فلما أجاب ظن به أنه مبتدع لسوء ظن اللجنة بذلك المسجد وأهله؛ فحرم من الغرض الذى أداه إلى المثول أمام تلك اللجنة الظالمة له بظنها الخاطئ فيه أنه من أهل البدع!!

٤- وآخر تقدم لجامعة من الجامعات، فلما علم بعض إداريها أنه مزكى من طرف فلان ظن به أنه مبتدع، وحرم من القبول لأول الأمر، ولم يسمح له بالانتظام فى سلك تلك الجامعة إلا بعد لأى[1] شديد.

هذه بعض الصور على الإخلال بأدب اجتناب سوء الظن بالناس، نتج عنها كما رأى، أخى القارئ، عدد من الحوادث المؤلمة التى ليس لها مبرر، ولا أصل صحيح تستند إليه، والخطر فى هذا الأمر أن الظالم والمظلوم سيمثلان أمام علام الغيوب ليقضى بينهما بالحق، فالأمر ليس فقط إخلالاً بأدب من الآداب، لكنه قد يهلك صاحبه يوم العرض الأكبر بسبب الظلم الذى ارتكبه.

ثالثًا: الأدب مع العلماء والكبار وأهل الفضل:

علماء الأمة وكبارها وأهل الفضل فيها هم صفوتها ورجالاتها الذين يرجى منهم إعادة مجد الأمة التليد السليب، وهم ورثة أربعة عشر قرنًا من العمل الدءوب لرفعة هذه الأمة وقيادتها للعالمين، وهم البرهان الحقيقى على نجاح

(١) أى صعوبة.

المنهج الإسلامى فى التطبيق العملى؛ إذ بوجود هؤلاء الأفذاذ، الذين هم صفوة البشر على الحقيقة، تقاس مدى قدرة هذا المنهج على إخراج رجال هم أقرب إلى الكمال البشرى من أى نماذج أخرى على هذه البسيطة، بل ليس هناك أفعل تفضيل بين رجالات المنهج الإسلامى وما عداه من المناهج.

إذا عُلم هذا، أفيصح أن يعامل هؤلاء بغير المستحق لهم من التكريم والإمامة والتقديم بينما صعاليك البشرية يقدمون ويقودون ويكرمون؟! وإن صح هذا من التائهين عن منهج الإسلام فلا يصح من القائمين عليه المعتزين به، الحاملين للوائه.

وإذا نظرت إلى الأمة اليوم وجدت هذا الأدب مع أولى الفضل والعلم يتفاوت من مجتمع لآخر، لكن هناك منغِّصات، فى كل المجتمعات، تكدر هذا الأدب وتهدر مكانة أولى الفضل والعلم فى النفوس، ومن الأمثلة على هذه المنغصات:

١- عالم يحاضر فى جمع، ثم بعد الفراغ من محاضرته يتوجه ذلك الجمع إلى المسجد لأداء الصلاة، وبعد الفراغ يفاجأ الجمع بمن يقوم مندداً بهذا العالم مبيناً مساوئه، فى زعمه، فيتأثر ذلك العالم ويبكى، فيقوم عالم آخر ليدافع، فيكاد ذلك الاشتباك يفسد الجو العلمى الإيمانى الذى عاشه ذلك الجمع المدهوش بما حدث لشيخه.

٢- عالم له قدره وإمامته يتأخر عن طلبته، الذين يدرسون عليه فى حلقة خاصة، بسبب ظروف ألمت به، فما كان من بعض طلبته إلا أن لامه

بجفاء على ذلك التأخير، وأنهم قد انتظروه طويلاً، فاحتمل ذلك الجفاء منهم بصدر رحب.

ولو أن الشيخ الفاضل عامل هذا الجافى بما كان السلف يعاملون أمثاله من الطلبة لتأدب وكان ذلك عبرة لأمثاله.

وقد أورد ابن جماعة[1] علاجًا لمثل هذا الطالب المسيء فقال، رحمه الله تعالى، مبينًا واجب الشيخ مع من يسيء الأدب أو يسقط الحرمة:

على الشيخ أن يُعرِّض «بالنهى عن ذلك بحضور من صدر منه غير معرض به ولا معين له، فإن لم ينته نهاه عن ذلك سراً، ويكتفى بالإشارة مع من يكتفى بها، فإن لم ينته نهاه عن ذلك جهراً، ويغلظ القول عليه إن اقتضاه الحال لينزجر هو وغيره، ويتأدب به كل سامع، فإن لم ينته فلا بأس حينئذٍ بطرده والإعراض عنه إلى أن يرجع، ولا سيما إذا خاف على بعض رفقائه وأصحابه من الطلبة موافقته»[2].

وقد كانت مجالس العلم على خلاف ما نحن عليه اليوم، ولبيان ذلك فإنى أهدى إلى أبصاركم وأسماعكم صوراً لما كانت عليه هذه المجالس، ووصية لما ينبغى أن تكون عليه:

---

(١) بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنانى الحموى الشافعى، ولد بحماة سنة ٦٣٩ وتفقه ومهر فى الفنون ثم ولى قضاء القدس ثم الشام، ودرس بمدارس فى مصر بعد أن تولى قضاءها، كان ذكياً متفننًا، ورعًا صيتًا، وافر العقل، متقشفًا مع حسن خلق وقوة فى الحق، توفى سنة ٧٣٣ بمصر بعد أن عمى مدة، انظر «الدرر الكامنة»: ٣/ ٣٦٧-٣٦٩.

(٢) «تذكرة السامع»: ٦١.

أما مجالسهم فقد قال أحمد بن سنان[١]:

«كان عبد الرحمن[٢] لا يتحدث فى مجلسه، ولا يُبْرَى قلمٌ، ولا يقوم أحد، كأنما على رءوسهم الطير أو كأنهم فى صلاة»[٣].

وهذا الإمام الشافعى، رحمه الله تعالى، يقعد مذهب الأدب فى المجالس فيقول:

«قدمت المدينة فرأيت من مالك بن أنس ما رأيته من هيبته وإجلاله للعلم، فازددت لذلك أدبًا، حتى ربما كنت أكون فى مجلسه فأريد أن أصفح الورقة فأصفحها صفحًا رقيقًا هيبة له لئلا يسمع وقعها!!»[٤].

وهكذا كان أدبه مع مشايخه فكان أن عامله تلاميذه المعاملة نفسها، قال الربيع بن سليمان[٥]:

«والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعى ينظر إلىَّ هيبة له!»[٦].

---

(١) أحمد بن سنان بن أسد، أبو جعفر القطان الواسطى، ثقة حافظ، مات سنة ٢٥٩، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٨٠.

(٢) عبد الرحمن بن مهدى بن حسان العنبرى بالولاء، أبو سعيد البصرى، ثقة ثبت حافظ عارف بالرجال والحديث، قال ابن المدينى: ما رأيت أعلم منه، مات سنة ١٩٨ عن ٧٣ سنة، رحمه الله تعالى، المصدر السابق: ٣٥١.

(٣) من إضافات محقق «تذكرة السامع» فى هامش صفحة ٩٨.

(٤) المصدر السابق: ١١٣، نقلاً عن «مناقب الشافعى» للبيهقى.

(٥) الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المرادى، أبو محمد المصرى المؤذن، صاحب الإمام الشافعى، ثقة، مات سنة ٢٧٠ وله ست وتسعون سنة، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٢٠٦.

(٦) «تذكرة السامع»: ٦١.

ولا عجب فى هذا والله؛ إذ الأدب يورث كما يورث المال.

أما الأدب الذى يستحب الالتزام به مع العالم فقد وضحه ابن جماعة، رحمه الله تعالى، بنقله وصية أبى الحسن على بن أبى طالب، رضى الله عنه وأرضاه، حيث قال:

«من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرن عنده بيديك، ولا تغمز بعينيك غيره، ولا تقولن: قال فلان، خلاف قوله، ولا تغتابن عنده أحدًا، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره لله تعالى، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته، ولا تُسارّ فى مجلسه[1]، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تشبع من طول صحبته فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شىء.

ولقد جمع، رضى الله عنه، فى هذه الوصية ما فيه كفاية»[2].

فبالله عليك، أيها القارئ العزيز، أخبرنى بمجلس واحد من مجالس زماننا حضرته أو سمعت به يلتزم فيه بمثل هذا الأدب النادر أو بما يقاربه، وما خلت مجالسنا من هذا الأدب إلا بتفريطنا وقلة اعتنائنا بما كان عليه سلفنا، رحمهم الله تعالى.

٣- شاب[3] فى مقتبل العمر يحضر محاضرة لشيخ معروف، فيسأل ذلك الشيخ بعد نهاية المحاضرة سؤالاً فى القضاء والقدر، فيجيب الشيخ بما

(١) أى لا تهمس مع أحد فى مجلس الشيوخ.

(٢) «تذكرة السامع»: ١٠٠.

(٣) هذا المثال الثالث من أمثلة عدم احترام وتوقير أهل العلم والفضل.

قرره أهل السنة والجماعة فى هذا، فما كان من ذلك الشاب إلا أن قام فى وسط الجمع ليعلن أنه لم يفهم جواب الشيخ، فأعاد الشيخ تقريره للمسألة، ففوجئ الحاضرون بالشاب يقرر أنه لم يفهم المسألة لأن الشيخ لم يقرر مذهب أهل السنة والجماعة فيها، ولم يشرحها بطريقة الشيخ الفلانى.

والشاب، على الحقيقة، لم يفهم المسألة، وإنما أساء الأدب فى الخطاب، والمسألة أكبر منه.

٤- اجتماع دورى يحضره شباب وعامة وأهل فضل وعلم، فيأتى أحد أهل الفضل والعلم فلا يجد مكانًا لائقًا، وقد احتل الصدارة حدث ناشئ أو عامى جلف، فلا يتحرك أحد لاستقبال هذا القادم الفاضل، ولا يفسح له مكان يليق بعلمه وفضله، وقد جاء أحدهم مرة فوجد فسحة فى صدر المجلس فأبى عليه أدبه الجلوس فيها بغير إذن ولا تقديم، ولم يقدمه أحد للجلوس فيها مع أن صدر المجلس قد جلس فيه بعض الناشئة الأحداث!

صحيح أن على الإنسان أن يجلس حيث ينتهى به المجلس ولكن لا بأس بأن يقدمه غيره إلى مكان لائق به.

وقد جرت عادة السلف أن يقدموا فى المجلس الأفضل فالأفضل، حتى لو حضر الفاضل متأخرًا فإنه ينبغى أن يقدم إلى حيث يليق به الجلوس.

قال ابن جماعة، رحمه الله تعالى، مبينًا الأدب اللازم لمن حضر مجالس العلم:

«إذا حضر (أى طالب العلم) سلم على الحاضرين بصوت يسمع جميعهم، ويخص الشيخ بزيادة تحية واحترام...

وإذا سلم فلا يتخطى رقاب الحاضرين إلى قرب الشيخ من لم يكن منزلته كذلك، بل يجلس حيث انتهى به المجلس كما ورد فى الحديث، فإن صرح له الشيخ والحاضرون بالتقدم، أو كانت منزلته[1]، أو كان يعلم إيثار الشيخ والجماعة لذلك فلا بأس، ولا يقيم أحدًا من مجلسه أو يزاحمه قصدًا، فإن آثره لم يقبله إلا أن تكون فى ذلك مصلحة يعرفها القوم وينتفعون بها من بحثه مع الشيخ لقربه منه، أو لكونه كبير السن أو كثير الفضيلة والصلاح...

وإن كان الشيخ فى صدر مكان فأفضل الجماعة أحق بما على يمينه ويساره»[2].

٥- رجل التزم منذ فترة وجيزة، فيأتى به الثناء الكاذب والتعالم إلى موقع يحاسب فيه أئمة وخطباء ويقومهم، وبعضهم قد التزم الإسلام قبله بثلاثين سنة، فيكتب فيهم تقاريره بأنهم مبتدعة أو ضلال أو جهلة، وهو المسكين، لا يدرى بأنه جاهل قد استدرج إلى هذه الهوة السحيقة، فنكب به عدد من الأئمة أولى الفضل، ممن أجلوا محاسبته حتى يمثلوا معه أمام ملك الملوك سبحانه.

٦- رجل من المتعالمين قد حقق بعض المخطوطات وصنف بعض التصانيف، اعتاد فيها أن يتناول علماء الأمة الذين مضوا باللمز والإساءة،

(١) أى كانت الصدارة منزلته التى يجب أن يقدم إليها.

(٢) «تذكرة السامع»: ١٤٦-١٤٩.

فيصف هذا بأن عقيدته فاسدة، جداً، وآخر بأنه جهمى جلد، وآخر بأنه بدت منه الزندقة، أو تجده يدعو على العلماء، أو يمتنع من الترحم عليهم بدعوى أنهم أهل بدع، أو يقلل من شأنهم، والخطير فى هذا الأمر أن علماء الأمة وعقلاءها لم يحركوا ساكنًا للحد من سفاهة هذا الرجل وقلة أدبه والتقليل من خطره على النشء؛ إذ هو، كما يذكر، قدوة لبعض جهلائهم وغرارهم.

ما أحوج هؤلاء الذين يسلقون العلماء بألسنة حداد إلى رجل مثل الإمام الحافظ ابن عساكر[1]، رحمه الله تعالى، فقد صد أحد هؤلاء صداً يليق به وبأمثاله من سفهاء المتعالمين، وهو يعد بالنسبة لأغرار زماننا إمامًا حافظًا، بل هو كذلك لكن غلبه لسانه، وقعد به احتقاره العلماء، وإليك، أخى القارئ، هذه الكائنة التى حدثت فى القرن السادس.

قال الإمام الذهبى، رحمه الله تعالى:

«فقال الحافظ ابن عساكر:

كان العبدرى[2] أحفظ شيخ لقيته، وكان فقيهًا داوديًا[3]...

(١) الإمام العلامة الحافظ، محدث الشام، ثقة الدين أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله الدمشقى الشافعى، ولد سنة ٤٩٩، وغلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ فى طلبه، وكان دينًا، صنف التصانيف المفيدة وأجلها «تاريخ دمشق»، توفى سنة ٥٧١ بدمشق، رحمه الله تعالى، انظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣٠٩-٣١١.

(٢) محمد بن سعدون بن مرجّى القرشى العبدرى المغربى، نزيل بغداد، الإمام الحافظ الناقد، ولد بقرطبة وكان من بحور العلم، اتهم بالتجسيم، توفى فى حدود سنة ١٣٠، انظر «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٣٩٣، ١٣٩٤.

(٣) أى على مذهب الظاهرية، وإمامهم داود الظاهرى، رحمه الله تعالى.

وسمعته وقد ذكر مالك فقال: جلف جاف!!، ضرب هشام بن عمار[١] بالدرة[٢].

وقرأت عليه «الأموال» لأبى عبيد[٣] فقال، وقد مر قول لأبى عبيد: ما كان إلا حمارًا مغفلاً لا يعرف الفقه!

وقيل لى عنه أنه قال فى إبراهيم النخعى[٤]: أعور سوء، فاجتمعنا يومًا عند ابن السمرقندى[٥] فى قراءة كتاب «الكامل»[٦] فجاء فيه: «وقال السعدى[٧] كذا»، فقال: يكذب ابن عدى[٨]، إنما ذلك قول إبراهيم الجُوزَجانى.

---

(١) هشام بن عمار بن نُصير السُّلمى الدمشقى الخطيب، توفى سنة ٢٤٥ وله اثنتان وتسعون سنة، انظر «التقريب»: ٥٧٣.

(٢) انظر القصة فى «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٨٤٥.

(٣) الإمام القاسم بن سلام بن عبد الله الهروى، ولد سنة ١٥٧، وكان ثقة حافظًا مجتهدًا، صنف التصانيف المفيدة، توفى بمكة بعد أن حج سنة ٢٢٤، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٤٩٠-٥٠٩.

(٤) إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعى، أبو عمران الكوفى، الفقيه، ثقة، مات سنة ٩٦ عن خمسين سنة، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٩٥.

(٥) أبهم هنا لكن لعل أقرب التراجم إلى ابن السمرقندى هذا هو إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندى الدمشقى المولد البغدادى الوطن، توفى سنة ٥٣٦، وقد قرأ عليه ابن عساكر، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٨-٣٠.

(٦) «الكامل فى ضعفاء الرجال» لابن عدى، رحمه الله.

(٧) إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق الجوزجانى نزيل دمشق، ثقة حافظ رُمى بالنصب، مات سنة ٢٥٩، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٩٥.

(٨) الإمام الحافظ والكبير الثقة أبو نعيم عبد الملك بن محمد بن عدى الجرجانى، الإستراباذى الفقيه الشافعى، ولد سنة ٢٤٢ وكان مقدمًا فى الفقه والحديث وكانت الرحلة إليه، وهو من أئمة المسلمين صدقًا وورعًا وضبطًا وتيقظًا، توفى بإستراباذ سنة ٣٢٣ عن نيف وثمانين سنة، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٥٤١-٥٤٧.

فقلت له: فهو السعدى، فإلى كم نحتمل منك سوء الأدب؟!! تقول فى إبراهيم كذا وكذا، وتقول فى مالك: جاف، وتقول فى أبى عبيد، فغضب وأخذته الرعدة وقال: كان ابن الخاضبة[1] ..... والبردانى[2] وغيرهما يخافوننى فآل الأمر إلى أن تقول فى هذا!

فقال له ابن السمرقندى: هذا بذاك.

فقلت: إنما نحترمك ما احترمت الأئمة!!»[3].

لله ما أعظم تلك الكلمة التى خرجت من فم حافظ الشام: «إنما نحترمك ما احترمت الأئمة» وكم نحن بحاجة إلى أمثاله فى زماننا هذا الذى سهل فيه على الأغرار الكلام على الأخيار، وأذيتهم بالقول والفعل، والله الموعد.

رابعًا: الأدب الشخصى والسلوكى:

هذا الأدب هو عنوان شخصية المسلم، وإظهار لمدى استفادته من نصوص الأدب فى الكتاب والسنة وكتب العلماء وسيرهم.

صحيح أن لبيئة الشخص تأثيرًا كبيرًا فى سلوكه لهذه الآداب، فالبدوى يختلف تأدبه عن الحضرىّ، وبيوت الحضر ليست فى مرتبة واحدة فى مراعاة

(١) الشيخ الإمام المحدث الحافظ الصادق القدوة، أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقى البغدادى الدقاق المعروف بابن الخاضبة، كان فاضلاً محببًا إلى الناس، توفى سنة ٤٨٩، وكانت جنازته مشهودة، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ١٠٩-١١٤.

(٢) الشيخ الإمام الحافظ الثقة مفيد بغداد، أبو على أحمد بن محمد بن أحمد البردانى ثم البغدادى، وبردان قرية من قرى بغداد، ولد سنة ٤٢٦، وسمع من جماعة ولم يرحل، كان ثقة نبيلاً، وله مصنفات. توفى سنة ٤٩٨، رحمه الله تعالى، انظر المصدر السابق: ١٩/ ٢١٩-٢٢١.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٣٩٣.

سلوك الأدب، ولكنه لا بد للمسلم أن يلتزم بمبادئ سلوكية أدبية لا مناص له منها فى تعامله مع إخوانه ومجتمعه.

وهذا الأدب، خصوصًا، قد كُتب فيه كثيرًا، وجاءت فيه آيات وأحاديث كثيرة بما لا يحتمل إيراده هاهنا، ولكنه إذا استهين بهذا السلوك الأدبى ولم يراع فى المجتمع فإنه ينتج الصور التالية:

١- قوم من أهل العلم والفضل جلوس فى مجلس يغص بالفضلاء، فما كان من أحدهم إلا أن أقام رِجلاً على أخرى بطريقة غريبة بعيدة عن الذوق والأدب، بحيث أصبح أسفل قدمه فى وجوه كثير مِن الفضلاء، وهو لا يشعر بأنه قد صنع شيئًا جارحًا!

٢- فى المسجد النبوى، وفى جو إيمانى خاشع يعمد أحد المحتاجين إلى هذا الأدب فيضع المصحف على الأرض أمامه، فينصحه أحد المصلين برفعه حتى لا يداس أو يمتهن، فما كان منه إلا أن طالب بالدليل على هذا!!

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

فهل يطلب دليل على تكريم المصحف ورفعه والتأدب معه؟!.

وفى الاعتكاف فى بيت الله الحرام تجد بعض المصلين قد استلقوا على الأرض على أقفائهم، وأرجل بعضهم تكاد تلامس مكان حفظ المصاحف بدعوى ألا دليل على التحريم، أو هو التهاون وعدم التأدب، وقد رأيت بعينى أكثر من مرة، فى ذلك المكان الشريف، مصاحف موضوعة تحت النعال، نعم

إن صاحبها لم يقصد ذلك ولكن أداه إليه تهاونه وسوء أدبه مع المصحف الشريف.

٣- رجل يقول لإخوانه: تعالوا نغتب فى الله ساعة، وظنه أنه يقتدى بالإمام شعبة بن الحجاج[١]، حيث كان يؤسس قواعد الجرح والتعديل لرجال الحديث الشريف[٢]، فشعبة، رحمه الله، لم يقل مثل هذا لأجل الغيبة المذمومة المحرمة، إنما يقصد بكلمته تلك الجرح والتعديل لرواة الحديث الشريف بمقاييس أقرها الشرع المطهر وفرغ منها، أفيأتى اليوم جاهل ليطبق مقولة شعبة على إخوانه الدعاة الذين نذروا أنفسهم لدين الله تعالى وإقامته فى الأرض، فينهش أعراضهم، ويسفه أحلامهم، وينتقص أحوالهم، وينبز قدواتهم بدعوى أنه يغتاب فى الله؟!

فليتق الله امرؤ يتجرأ على مثل هذا.

٤- وهناك صور تنبئ عن الإخلال بهذا الأدب عند بعض الناس، وذلك نحو عدم الترفع عن البذاءة فى اللسان، والفحش فى القول، أو عدم الاكتراث بمعرفة وتطبيق أدب الإسلام فى نفسه وأهله وبيته، أو إزالة الكلفة بينه وبين أقرانه إلى حد إساءة الأدب، أو أنه يترك نفسه على سجيتها عند الخطاب مع إخوانه وخاصة أولى الفضل منهم، أو تجده يلبس من الثياب

(١) شعبة بن الحجاج بن الورد العتكى بالولاء، أبو بسطام الواسطى البصرى. ثقة حافظ متقن، أمير المؤمنين فى الحديث، هو أول من فتش عن الرجال فى العراق وذب عن السنة، وكان عابداً، توفى سنة ١٦٠، رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٢٦٦.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٨٢.

فى المجامع ما يستحيى من لبسه، أو تجده كثير المزاح إلى درجة يستثقل معها ويكره لقاؤه، أو أن يكون صوته صياحًا وعويلاً، . . . إلخ.

هذه بعض الحوادث والصور التى تدل على الإخلال بهذا الأدب الذى قد يقلل من شأنه، أو يظن أنه ليس مهماً، أو لا يحافظ عليه المحافظة الواجبة فيسوء حال المجتمع وتسقط هيبة أفراده.

●●●

طريق اكتساب الأدب

إذا تقررت حاجتنا إلى الأدب، وعلمنا أهميته وفضله، وعرفنا أن الصالحين والأخيار حرصوا على الاتصاف به والأخذ بطرائقه، إذا علم ذلك كله فكيف السبيل إلى اكتسابه والتخلق به؟

لا بد أن يعلم ابتداء أن الأدب وهبى وكسبى، فقد يميز الله بعض الناس بمعرفة طرائق الأدب وسلوك دقائقه وهم بعد فى الصغر، فهذه موهبة من الله وهبها لعبده ذاك، وبعض الناس قد يضطر إلى أن يكتسب طرائق الأدب اكتسابًا لقلة ما وهب الله إياه من هذا الخلق الكريم.

وهاك بعض الطرائق التى تعين على اكتسابه:

أولاً: تربية النَّشْء عليه وأخذهم بتعاليمه:

لابد أن يربى النشء على الأدب، ويعلموا قواعده ومسالكه حتى يعتادوه فيصبح سمة بارزة لهم غير متكلفة.

وقد حرص الصالحون، والمربون، والعلماء، والسلاطين، والخلفاء، والأمراء، على تنشئة أولادهم على الأدب وحملهم عليه حتى يكون زينة لهم وفخرًا، وعهد كثير منهم بالمهمة هذه إلى المؤدب والمربى، الذى كان له النصيب الأوفر من التوقير والتبجيل.

قال الذهبى، رحمه الله تعالى:

«كان المأمون[1] قد وكل بـ«الفراء»[2] ولديه يلقنهما النحو، فأراد القيام فابتدرا إلى نعله فقدم كل واحد فردة، فبلغ ذلك المأمون، فقال: لن يكبر الرجل عن تواضعه لسلطانه وأبيه ومعلمه»[3].

«وقيل لبُزُرجُمْهُر[4]:

ما بال تعظيمك لمؤدبك أشد من تعظيمك لأبيك؟!

قال: لأن أبى كان سبب حياتى الفانية، ومؤدبى سبب حياتى الباقية»[5]!

وهو كلام حسن جداً.

وقال عبد الملك بن مروان[6]، رحمه الله تعالى، لمؤدب ولده:

«علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، واحملهم على الأخلاق الجميلة.

ورَوِّهم الشعر يشجعوا وينجُدُوا.

---

(١) عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد، أبو العباس المأمون الخليفة العباسى المشهور، توفى سنة ٢١٨، انظر ترجمته فى «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٢٧٢ وما بعدها.

(٢) عالم زمانه فى اللغة والأدب: أبو زكريا يحيى بن زيد بن عبد الله الأسدى، توفى سنة ٢٠٧، وله ثلاث وستون سنة، رحمه الله تعالى، انظر «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٤٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) من حكماء الفرس وفلاسفتهم الذين سطروا كتبًا فى الحكمة، واستولى عليها الإسكندر بعد انتصاره على دارا ملك الفرس، انظر «نزهة الأرواح وروضة الأفراح»: ٥٣، ٥٤.

(٥) «البصائر والذخائر»: ٥/ ١٤٩.

(٦) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى، أبو الوليد المدنى ثم الدمشقى، كان طالب علم قبل الخلافة ثم اشتغل بها فتغير حاله، ملك ١٣ سنة استقلالاً وقبلها منازعًا لابن الزبير ٩ سنين، مات سنة ست وثمانين وقد جاز الستين، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٣٦٥.

وجالس بهم أشراف الناس وأهل العلم منهم، فإنهم أحسن الناس رِعَة[1] وأحسنهم أدبًا.

وجنبهم السفلة والخدم، فإنهم أسوأ الناس رعة وأسوأهم أدبًا، ومرهم فليستاكوا عرضًا، وليمصوا الماء مصًّا ولا يعبوه عبًّا.

ووقرهم فى العلانية، وذللهم فى السر، واضربهم على الكذب؛ إذ الكذب يدعو إلى الفجور، والفجور يدعو إلى النار.

وجنبهم شتم أعراض الرجال؛ فإن الحر لا يجد من عرضه عوضًا.

وإذا ولُّوا أمرًا فامنعهم من ضرب الأبشار[2]؛ فإنه عار باق ووتر[3] مطلوب.

واحملهم على صلة الأرحام، واعلم أن الأدب أولى بالغلام من النسب»[4].

وإنما سقت هذه الوصية بطولها لما فيها من معالم عامة لتأديب الأطفال والفتيان فى حال اجتماعهم مع الناس، وفى أوقات خلوتهم، وفى حال توليهم المسئوليات الجسام، وغير ذلك.

وقد كانت سُنَّةٌ حميدة أن يُعهد بالأولاد للمربين والمؤدبين الصالحين، وما أجدر دعاة الإسلام اليوم أن يحيوا تلك السنة الحميدة، فإن أوقاتهم التى

(١) ورعًا.

(٢) الأبشار جمع بشرة؛ وهى ظاهر الجلد، «المصباح المنير»: (ب ش ر).

(٣) ثأر.

(٤) «لباب الآداب»: ٢٠٣.

يبذلونها سخية لله تبارك وتعالى لم تبق لهم طاقة على صيانة الأبناء وتأديبهم، وليس لكل منهم زوجة أديبة أريبة متفرغة لهذا الأمر الجلل، فليس أمام الصالحين والدعاة اليوم، والله أعلم، إلا أن يحيوا سنة المؤدبين حتى لا يشقوا بأولادهم كبارًا.

وقد يقال: كيف يتم هذا، وأين هم هؤلاء المؤدبون؟

أقول: ابحث لولدك عن معلم للقرآن، مثلاً، واجعل من شروطك فى هذا المعلم أن يكون به من الأدب والحزم والعلم ما يمكن أن يؤهله لتأديب أبنائك ولو تأديبًا متوسطًا فإنه خير من تركهم هملاً، فإنا قد رأينا أولادًا لبعض الصالحين يُخجل منهم، عافانا الله وإياكم.

قد ينفع الأدبُ الأحداث فى صغر ... وليس ينفع عند الشيبة الأدب[1]

«قال بعض الحكماء:

بادروا بتأديب الأطفال قبل تراكم الأشغال وتفرق البال»[2].

«ويقال: من أدب صغيرًا قرت عينه كبيرًا، ومن أدب ابنه أرغم أنف عدوه»[3].

إن الغصون إذا قوّمتها اعتدلت ... ولا يلين إذا قومته الخشب[4]

(١، ٢) «منهاج اليقين»: ٣٩٣.

(٣) «لباب الآداب»: ٢٢٨.

(٤) «منهاج اليقين»: ٣٩٣.

«وقال بُزُرجُمْهُر: ما ورّثت الآباء الأبناء شيئًا أفضل من الأدب!، إنها إذا ورثتها الآداب كسبت بالآداب الأموال والجاه والإخوان والدين والدنيا والآخرة، وإذا ورثتها الأموال، وقعدت عدمًا من الأموال والآداب»[١].

وقد كان الآباء يوصون أبناءهم بتعلم الأدب قبل العلم، فمن ذلك:

«قال حبيب بن الشهيد[٢] لابنه:

يا بنى، اصحب الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم، فإن ذلك أحب إلىَّ من كثير من الحديث»[٣].

«وقال بعضهم لابنه:

يا بنى، لأن تتعلم بابًا من الأدب أحب إلىَّ من أن تتعلم سبعين بابًا من أبواب العلم»[٤].

وقال الإمام مالك، رحمه الله تعالى:

«كانت أمى تُعمِّمنى وتقول لى: اذهب إلى ربيعة[٥] فتعلم من أدبه قبل علمه»[٦].

---

(١) المصدر السابق: ٢٢٩.

(٢) أبو مرزوق التجيبى بالولاء المصرى، نزيل برقة واسمه حبيب ابن الشهيد، ثقة، مات سنة ١٠٩ رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٦٧٢.

(٣) «تذكرة السامع»: ٢، ٣.

(٤) «تذكرة السامع»: ٢، ٣.

(٥) ربيعة بن أبى عبد الرحمن التيمى بالولاء، أبو عثمان المدنى، المعروف بـ(ربيعة الرأى)، واسم أبيه فروخ. ثقة فقيه مشهور. مات سنة ١٣٦، رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٢٠٧.

(٦) «صفحات من أدب الرأى»: ٦٣، نقله المصنف عن «ترتيب المدارك» للإمام عياض، رحمه الله.

وليس معنى هذا أن يهمل العلم، كلا فالأئمة أورع وأتقى من أن يصنعوا هذا، بل غاية ما فى تلك الآثار الحث على الأدب وأنه يتعلم قبل تعلم مسائل العلم، وذلك أنه «علم بلا أدب كنار بلا حطب، وأدب بلا علم كروح بلا جسم»[1].

وأختم بكلام نفيس للإمام الغزالى، رحمه الله تعالى، حيث قال فى باب: «بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوئهم، ووجه تأديبهم، وتحسين أخلاقهم» من كتاب «إحياء علوم الدين»:

«اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها.

والصبى أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه.

فإن عُوِّد الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب.

وإن عُوِّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر...

(١) المصدر السابق: ٦٣ نقلاً عن «الجامع» للخطيب، رحمه الله.

بل ينبغى أن يراقبه من أول أمره، فلا يستعمل فى حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغى أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحى ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، وهذه بشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، فالصبى المستحى لا ينبغى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه».

ثم ذكر طرقًا نفيسة فى تأديب الصبيان ينبغى لكل والد ووالدة ومربٍّ ومربية الرجوع إليها.

ثانيًا: إبراز القدوات:

وطريق ذلك النظر فى ميراث أسلافنا العظام لنعلم كيف كان الأدب سلعة رائجة بينهم قام سوقها واشتد عودها، فيبرز للناس القدوات فى هذا الباب ليعلموا أنهم، بسلوكهم الأدب، على سنة وطريقة متبوعة، وعلى خير عظيم وميراث جليل.

ثالثًا: تعليم الناس وتذكيرهم دومًا بأهمية الأدب فى حياتهم ومجتمعاتهم وخطورة تركه وإهماله:

وذلك يتحقق بإقامة الندوات والمحاضرات فى الإذاعة والتلفاز، وكتابة المقالات والمطولات على صفحات الجرائد والمجلات، وحث الخطباء على معالجة هذا الموضوع فى خطب الجمعة وغيرها، وإعلاء شأن الأديب والتنويه به وجعله قدوة وإمامًا فى هذا الباب، إلى آخر ما تتفتق عنه قرائح المربين والموجهين.

رابعًا: ترسيخ الأخلاق القويمة فى المجتمع:

لا بد أن يعلم أن الأدب له روافد كثيرة من الأخلاق الأساسية المرغوبة المطلوبة، فالإنصاف خلق كريم والمؤدب لا بد أن يكون منصفًا، والأمانة مطلوبة والمؤدب لا بد أن يكون أمينًا، والصدق خلق عظيم والمؤدب لا بد أن يكون صدوقًا، وهكذا... فتربية المجتمع على الأخلاق القويمة تنشئ أصحاب أدب رفيع بلا شك، والله أعلم.

خامسًا: قراءة الكتب التى أفردت لأبواب الأدب:

وسيأتى ذكرها فى المبحث القادم، إن شاء الله تعالى:

هذه الكتب تحوى أزهارًا منثورة تكسب طالبها الأدب والرقة وحسن الخلق، وتُعمل فى نفسه ما لا يعمله كثير من الكلام المجرد الجاف، والله أعلم، وكذلك تفيد، فى هذا الباب، قراءة كتب الأدب العربى: نثره وشعره، فهو يرقق الحس، ويُرهف المشاعر، ويزكى النفس، لما فيه من حث على مكارم الأخلاق والفتوة، وذكر شمائل العرب المشهورة.

سادسًا: مصاحبة المربين المؤدبين:

من أعظم ما يفيد فى هذا الباب هو تلقى الأدب من المربين، فإن كان المتلقى طالب علم أخذ علمه عن شيوخ يربونه على الأدب ويقسرونه عليه.

وإن كان المتلقى للأدب لا رغبة له فى طلب العلم فليصحب من الرفقاء من يزين له مذهب الأدب ويحثه عليه.

قال الإمام الغزالى، رحمه الله تعالى:

«الطريق الثانى[1]: أن يطلب صديقًا صدوقًا بصيرًا متدينًا يلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه ينبهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمة الدين، كان عمر يقول: رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى»[2].

سابعًا: توقى الآداب المرذولة:

وهذه طريقة مفيدة لاكتساب الأدب لمن لا شيخ له ولا صاحب، وهى طريقة للعقلاء، ولا تصلح للجهال، ولا للسفهاء، ويوضح هذا الإمام الغزالى بقوله:

«الطريق الرابع[3]: أن يخالط الناس، فكل ما رآه مذمومًا فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه، ويعلم أن الطباع متقاربة فى اتباع الهوى، فما يتصف به غيره فلا ينفك هو عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شىء منه، فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره، وناهيك بهذا تأديبًا، فلو ترك الناس كل ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب...

وهذا كله من حيل من فقد شيخًا مربيًا ناصحًا فى الدين، وإلا من وجده فقد وجد الطبيب فليلازمه فإنه يخلصه من مرضه»[4].

ويقول ابن المقفع، رحمه الله تعالى:

---

(١) أى من طرق تهذيب النفس.

(٢) «موعظة المؤمنين»: ٢١١.

(٣) أى من طرق التأدب.

(٤) «موعظة المؤمنين»: ٢١٢.

«على العاقل أن يحصى على نفسه مساويها فى الدين، وفى الرأى، وفى الأخلاق، وفى الآداب، فيجمع ذلك كله فى صدره أو فى كتاب، ثم يكثر عرضه على نفسه ويكلفها إصلاحه، ويوظف ذلك عليها توظيفًا[١] من إصلاح الخلة أو الخلتين[٢] فى اليوم أو الجمعة أو الشهر، فكلما أصلح شيئًا محاه، وكلما نظر إلى ثابت اكتأب[٣].

وعلى العاقل أن يتفقد محاسن الناس ويحفظها ويحصيها، ويصنع فى توظيفها على نفسه وتعهدها بذلك مثل الذى وصفنا فى إصلاح المساوئ»[٤].

وقال ابن المقفع أيضًا:

«حق على العاقل أن يتخذ مرآتين: فينظر من إحداهما فى مساوئ نفسه فيتصاغر بها ويصلح ما استطاع منها.

وينظر من الأخرى[٥] فى محاسن الناس فيحليهم بها[٦] ويأخذ ما استطاع منها»[٧].

ثامنًا، رياضة النفس ومجاهدتها:

من علم من نفسه قصورًا فى هذا الباب فعليه أن يروضها ويهذبها ويجاهدها حتى تلجم بالأدب وتساس به، فإنه ليس كل أحد يعرف، فطرة

(١) أى يجعل لإصلاحه جدولاً مرتبًا.
(٢) الخصلة والصفة.
(٣) أى نظر إلى سيئة باقية لم ينجح فى محوها.
(٤) «الأدب الصغير»: ٢٨٧.
(٥) أى المرآة الأخرى.
(٦) أى أن الصفات الجميلة حلوة فى الناس فيعتقد حلاوتها عليهم ليستفيد منها وبها.
(٧) الأدب الصغير: ٢٩٨.

وخلقًا، مسالك الأدب وطرقه، فلابد له من رياضة ومجاهدة وتخلق حتى يصير له الأدب خلقًا ملازمًا.

ولا يُتصوّر أن يكتفى الشخص فى اكتسابه الأدب بمسائل علمية مجردة دون أن يتدرب على الأخذ بها ورياضة نفسه عليها، ومجاهدتها بها.

قال الإمام الغزالى، رحمه الله تعالى:

«اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته[1]، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير.

فنقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات... وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن؛ إذ ينقل البازى[2] من الاستيحاش إلى الأنس، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق».

ثم قال، رحمه الله:

«فمن أراد، مثلاً، أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجود وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه به، ويواظب عليه تكلفًا، مجاهدًا نفسه حتى يصير ذلك طبعًا ويتيسر عليه فيصير به جوادًا... وجميع الأخلاق المحمودة شرعًا تحصل بهذا الطريق»[3].

(١) أى خبث نفسه. (٢) الصقر.

(٣) «موعظة المؤمنين»: ٢٠٥-٢٠٨.

مسائل متفرقة فى باب الأدب

المسألة الأولى:

هل الأدب ينافى الرجولة والقوة والشجاعة وحسن الإفصاح؟

يظن بعض الناس أن سلوك الأدب حاجز لهم عن الرجولة، والقوة، والشجاعة، وأن المؤدب رجل رقيق ضعيف، منحنى الرأس، خفيض الصوت إلى حد الهمس، خجول لا يستطيع الإفصاح عن مكنونات نفسه ومطالبها.

وهذا ظن ينبغى أن يمحى من الأذهان بمجرد تذكر أن الرسول ﷺ وصحابته كانوا أعظم الناس أدبًا، ومع هذا فقد كانوا أشجع الناس وأقواهم فى الحق، وكانوا القدوة حقًا فى هذا.

وفى التاريخ الإسلامى مثال جميل على القوة والشجاعة، مع التمسك بالأدب، ومراعاة حق من له حق.

فقد أتت امرأة يومًا شريك بن عبد الله قاضى الكوفة، وهو فى مجلس الحكم؛ فقالت: أنا بالله ثم بالقاضى.

قال: من ظلمك؟

قالت: الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين، كان لى بستان على شاطئ الفرات فيه نخل.ورثته عن أبى، وقاسمت إخوتى وبنيت بينى وبينهم حائطًا، وجعلت فيه رجلاً فارسيّاً يحفظ النخل ويقوم به، فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتى وساومنى ورغَّبنى فلم أبعه، فلما كان هذه

الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل[1] فاقتلعوا الحائط، وأصبحت لا أعرف من نخلى شيئًا، واختلط بنخل إخوتى.

فقال: يا غلام أحضر طينة[2]، فأحضرها، فختمها، وقال لها: امضى إلى بابه بالختم حتى يحضر معك، فجاءت المرأة بالطينة فأخذها الحاجب ودخل على موسى فقال: قد أعدى القاضى عليك[3]، وهذا ختمه.

فقال: ادع لى صاحب الشرطة فدعا به.

فقال: امضِ إلى شريك، وقل: يا سبحان الله، ما رأيت أعجب من أمرك، امرأة ادعت دعوى لم تصح، أعديتها علىَّ؟!

قال صاحب الشرطة: إن رأى الأمير أن يعفينى من ذلك؟

فقال: امضِ ويلك.

فخرج وقال لغلمانه: اذهبوا وادخلوا لى إلى حبس القاضى بساطًا وفراشًا وما تدعو الحاجة إليه، ثم مضى إلى شريك، فلما وقف بين يديه أدى الرسالة.

فقال القاضى لغلام المجلس: خذ بيده فضعه فى الحبس.

فقال صاحب الشرطة: والله قد علمت أنك تحبسنى فقدمت ما أحتاج إليه إلى الحبس.

---

(١) أى عامل.

(٢) وهى الدالة على ختم الكتاب وأنه لم يفتح.

(٣) أى جعل للمرأة حقاً فى المطالبة والادعاء، فوجب لذلك حضور الأمير إلى مجلس القضاء للفصل.

وبلغ موسى بن عيسى الخبر فوجه الحاجب إليه، وقال له: رسول أدى رسالة، أى شىء عليه؟!

فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه: إلى الحبس، فحبس.

فلما صلى الأمير موسى العصر، بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثى، وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضى شريك، وقال لهم: امضوا إلى القاضى وأبلغوه السلام، وأعلموه أنه استخف بى، وأنى لست كالعامة.

فمضوا إليه وهو جالس فى مسجده بعد صلاة العصر، فأبلغوه الرسالة: فلما انقضى كلامهم، قال لهم: ما لى أراكم جئتمونى فى غَثَرة[1] من الناس فكلمتمونى؟ من ههنا من فتيان الحى؟ فأجابه جماعة من الفتيان.

فقال: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس، ما أنتم إلا فتنة، وجزاؤكم الحبس.

قالوا له: أجاد أنت؟!

قال: حقاً، حتى لا تعودوا برسالة ظالم، فحبسهم.

فركب موسى بن عيسى فى الليل إلى باب السجن وفتح الباب وأخرجهم كلهم، فلما كان الغد وجلس شريك للقضاء، جاءه السجان فأخبره، فدعا بالقمطر[2] فختمه ووجه به إلى منزله، وقال لغلامه: الحق بثقلى إلى بغداد،

(١) الغثرة: الجماعة المختلطة من الغوغاء، «لسان العرب»: (غ ث ر).

(٢) أى الوعاء الذى تحفظ فيه الكتب.

والله ما طلبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلدناه لهم، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد.

وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى، فركب فى موكبه ولحقه، وجعل يناشده الله ويقول: يا أبا عبد الله، تثبت، انظر، إخوانك تحبسهم، دع أعوانى، قال: نعم، لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجز لهم المشى فيه، ولست ببارح أو يردوا جميعًا إلى الحبس وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدى فأستعفيه مما قلدنى، فأمر موسى بردهم جميعًا إلى الحبس وهو واقف والله مكانه، حتى جاءه السجان فقال: قد رجعوا جميعًا إلى الحبس.

فقال لأعوانه: خذوا بلجام دابته بين يدى إلى مجلس الحكم، فمروا بين يديه حتى أدخل المسجد، وجلس فى مجلس القضاء.

فجاءت المرأة المتظلمة فقال: هذا خصمك وقد حضر.

فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه: قبل كل أمر أنا قد حضرت، أولئك يخرجون من الحبس.

فقال شريك: أما الآن فنعم، أخرجوهم من الحبس.

فقال: ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة؟

قال: صدقت.

قال: ترد ما أخذت منها وتبنى حائطها سريعًا كما كان.

قال: أفعل ذلك كله.

قال لها: أبقى لك عليه دعوى؟

قالت: بيت الرجل الفارسى ومتاعه؟

قال موسى بن عيسى: ويُردُّ ذلك كله.

قال: أبقى لك عليه دعوى؟

قالت: لا، وبارك الله عليك وجزاك خيرًا.

قال: قومى، فقامت من مجلسه.

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه فى مجلسه، وقال: السلام عليك أيها الأمير، أتأمر بشىء؟!

فقال: أى شىء آخر؟! وضحك.

فقال له شريك: أيها الأمير ذاك الفعل حق الشرع، وهذا القول الآن حق الأدب، فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول: من عظم أمر الله أذل الله عظماء خلقه[1].

وهذه القصة تدل على القوة والشجاعة مع التمسك بالأدب وإعطاء كل ذى حق حقه، والله أعلم.

المسألة الثانية:

المؤدب قد يبدو منه بعض ما يظن أنه مخالف للأدب وذلك لغرض شرعى.

قد تقرر أن المؤدب عف اللسان، فكيف صدر من أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، ما صدر يوم الحديبية؟!، وكيف فاه أبىٌّ بن كعب، رضى الله عنه، بما فاه به عندما سمع تفاخر رجل بقومه ونسبه؟!

(١) «علماء الإسلام»: ١٢ - ١١٤ نقلاً عن «العقد الفريد».

بيان هذا أن تُوضَّح الحادثتان، وينظر فى كلام أهل الإسلام فيهما:

أما الحادثة الأولى فقد أخرج الإمام البخارى، رحمه الله تعالى، فى حديث الحديبية الطويل أن عروة بن مسعود الثقفى[١] انتدبته قريش للحديث مع رسول الله ﷺ، فكان مما قال له:

«أى محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك[٢]، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك، وإن تكن الأخرى[٣] فإنى والله لا أرى وجوهًا[٤]، وإنى لأرى أشوابًا من الناس[٥] خليقًا أن يفروا ويدعوك».

فغضب أبو بكر، رضى الله عنه، لما قال عروة ذلك، ورد عليه:

«امصص بظر اللات، أنحن نفرّ عنه وندعه!!»[٦].

فهذه لفظة شديدة من أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، ولكنها فى هذا المقام جائزة حسنة لصد عروة ونهيه عن أن يظن بالمسلمين الفرار عن رسول الله ﷺ.

قال ابن حجر[٧]، رحمه الله تعالى، موضحًا الحكمة فى هذا:

---

(١) أحد الصحابة، رضى الله عنهم، وقد ورد ذكره مضمنًا فى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقصته هذه قبل إسلامه.

(٢) أى بهزيمتهم وقتلهم. (٣) أى حصول الهزيمة على النبى ﷺ.

(٤) أى عظماء من الناس.

(٥) أى أخلاطًا من أنواع شتى، والتفسيرات الثلاثة الأخيرة من «الفتح»: ١١/ ١٦٨.

(٦) أخرجه البخارى، كتاب الشروط، باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط.

(٧) الإمام الأستاذ أحمد بن علىّ بن محمد، أبو الفضل الكنانى العسقلانى المصرى ثم الشافعى، ويعرف بـ(ابن حجر) وهو لقب لبعض آبائه. ولد بمصر العتيقة سنة ٧٧٣، وحفظ بعض=

«البظر: قطعة تبقى بعد الختان فى فرج المرأة، واللات: اسم أحد الأصنام التى كانت قريش وثقيف يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم بذلك ولكن بلفظ الأم[١]، فأراد أبو بكر المبالغة فى سب عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلى الفرار.

وفيه[٢] جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك.

وقال ابن المنيِّر[٣]: فى قول أبى بكر تخسيس للعدو، وتكذيبهم، وتعريض بإلزامهم من قولهم إن اللات بنت الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بأنها لو كانت بنتًا لكان لها ما يكون للإناث»[٤].

وقال ابن القيم، رحمه الله:

«وفى قول الصديق لعروة: «امصص بظر اللات» دليل على جواز التصريح باسم العورة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال... فلكل مقام مقال»[٥].

= المنظومات وأخذ عن مشايخ كثيرين، وجد فى طلب العلم حتى بلغ الغاية، وله عدة مصنفات نافعة مشهورة، توفى بالقاهرة سنة ٨٥٢. انظر «الضوء اللامع»: ٢/ ٣٦ - ٤٠.

(١) أى يقول أحدهم إذا شتم: امصص بظر أمك.

(٢) أى فى الحديث من الفوائد، وهو مرادى من ذكر هذا الحديث.

(٣) أحمد بن محمد بن منصور، من علماء الإسكندرية وأدبائها، ولى قضاءها وخطابتها مرتين، وله تصانيف. ولد سنة ٦٢٠، وتوفى سنة ٦٨٣ رحمه الله تعالى، انظر «الأعلام»: ١/ ٢٢٠.

(٤) «فتح البارى»: ١١/ ١٦٨، ١٦٩.

(٥) زاد المعاد: ٣/ ٣٠٥.

وأما ما كان من أبى، رضى الله عنه، فقد أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن أبى بن كعب، رضى الله عنه، أن رجلاً اعتزى بعزاء الجاهلية[١] فأعضَّه ولم يكنِه[٢]، فنظر القوم إليه[٣]، فقال للقوم: إنى قد أرى الذى فى أنفسكم، إنى لم أستطع إلا أن أقول هذا، إن رسول الله ، أمرنا «إذا سمعتم من يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضُّوه ولا تُكنوا».

وقال الأستاذ البنا، رحمه الله تعالى، تعليقًا على هذا الحديث:

«هو أمر تأديب، وفيه زجر عن دعوى الجاهلية»[٤].

فالحادثتان إذًا لا تخالفان المعهود من أدب الصحابة، رضى الله عنهم، إذ أن كلًّا من الصديق وأبى بن كعب لم يفوها بما فاها به إلا دفاعًا عن الإسلام وأهله، ودفعًا لقالة السوء عنهم، ومثل هذا الموقف يسوغ فيها، كما ذكر عدد من الأئمة، الإفحاش فى الرد على أصحابها حتى لا يجوزوا حدودهم، ولا يحدثوا البلبلة فى الصف الإسلامى، والله أعلم.

وفى حديث آخر أن أصحابه قالوا له: «ما كنت فحاشًا، قال: إنما أمرنا بذلك»[٥].

---

(١) قال الأستاذ أحمد البنا فى «الفتح الربانى»: ١٩/ ٢٢٩: «أى انتسب وانتمى، وعزاء الجاهلية هو أنهم كانوا يقولون فى الاستغاثة: يا لفلان، وينادى: أنا فلان بن فلان ينتمى إلى أبيه وجده لشرفه وعزه» أ هـ. بتصرف يسير.

(٢) «أى قال له: اعضض ذكر أبيك بصريح اللفظ لا بالكنية عنه وهى الهَنُ، وكنى بهذا الاسم عن الفرج» أهـ. المصدر السابق بتصرف يسير.

(٣) أى نظروا إليه نظر دهشة واستنكار، المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق. وقال الأستاذ البنا: رمز له السيوطى بعلامة الصحة.

(٥) المرجع السابق.

المسألة الثالثة:

عدم الاتفاق فى بعض المسائل لا يعنى إهدار سائر حقوق الأدب:

يجتمع الإنسان المسلم فى هذه الحياة بطبقات شتى من الناس، وكل إنسان له حق معلوم لا بد من إيفائه إياه حتى لو كان هذا الحق هو السلام عليه، فلو اختلف المسلم مع آخر فى أمر ما فلا يعنى هذا إهدار كل حقوقه فى باب الأدب أو التقصير فيها.

ومثال هذا أن يجتمع عدد من الناس فى مجلس فيختلفون وقد ترتفع أصواتهم، ولكن ليس لأحد منهم أن يتجاوز حدود الأدب أو يقصر فى بعض حقوق أخيه؛ لأنه اختلف معه فى الرأى، أو غضب من طريقة نقاشه، أو ساءه بعض تصرفاته.

وقد ذكر الذهبى، رحمه الله تعالى، مثالاً يصلح فى هذا الباب، باب حفظ حقوق الأدب ولو حصل خلاف ما بين الأفراد، فقال، رحمه الله:

«قال أحمد بن أبى الحوارى:[1]

جاء رجل من بنى هاشم إلى عبد الله بن المبارك ليسمع منه فأبى أن يحدثه.

فقال الشريف لغلامه:

(١) أحمد بن عبد الله بن ميمون ابن أبى الحوارى الإمام الحافظ القدوة شيخ أهل الشام، أبو الحسن الثعلبى، الغطفانى الدمشقى الزاهد أحد الأعلام، أصله من الكوفة، ولد سنة ١٦٤ وتوفى سنة ٢٤٦، رحمه الله تعالى، انظر «نزهة الفضلاء»: ٣/ ٩٨٥ - ٩٨٨.

قم فإن أبا عبد الرحمن لا يرى أن يحدثنا، فلما قام ليركب جاء ابن المبارك يمسك بركابه.

فقال: يا أبا عبد الرحمن، تفعل هذا ولا ترى أن تحدثنى.

فقال: أذل لك بدنى، ولا أذل الحديث»[1].

فهو لا يرى أن يحدثه ولكن أوفاه حقه من الأدب الواجب مع آل البيت الأطهار.

وفى القصة المذكورة فى المسألة الأولى من هذه المسائل المتفرقة ما يصلح أن يكون شاهدًا لهذه المسألة أيضًا، والله أعلم.

المسألة الرابعة:

قاعدة جامعة فى المؤدب، من هو؟

قد يقول قائل: قد أكثرت علينا فى باب الأدب فهل من قاعدة جامعة يعرف بها المؤدب؟

وأقول مستعينًا بالله:

المؤدب هو الذى ألزم نفسه خصال الأدب التى سنها الشرع المنيف، وهذه الخصال هى التى ربى عليها خير الخلق ﷺ أصحابه الأشراف وآله الأطهار، فعلت بهم علواً كبيرًا، وأورثتهم الكافرين: أرضهم وديارهم وأموالهم.

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٥٧.

ويكفى فى هذا أن يورد حديث ذلك المغتاظ: «أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة، فقال: أجل. . . .»[1].

أى أنه علمهم آداب كل شىء حتى آداب دخول الحمام، وهذا مما لم تسبق إليه شريعة.

المؤدب، أيضًا، هو الذى لا يخرج عن أعراف مجتمعه الصالحة التى لا تخالف الشرع، فبالتزامه لها يعظم فى عين الناس.

ومع أن خصال الأدب واسعة كثيرة يصعب حصرها لكن لا بد من النظر فيها نظرًا يعين على تطبيقها كلها أو بعضها، وللتوصل إلى ذلك لا بد من النظر فى جوامع الآداب التى أشارت إليها الشريعة، وسنها الصالحون، فيؤخذ من تلك الآداب على قدر همة الشخص واستعداده وتقبله.

وقد شعر بعض المهتمين قديمًا بكثرة مسائل الأدب وتفرعها.

فقد قيل للحسن البصرى، رحمه الله تعالى:

«قد أكثر الناس فى علم الآداب، فما أنفعها عاجلاً وأفضلها آجلاً؟

فقال: التفقه فى الدين، فإنه يصرف إليه قلوب المتعلمين.

والزهد فى الدنيا، فإنه يقربك من رب العالمين.

والمعرفة بما لله تعالى عليك يحويها كمال الإيمان[2].

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة، باب الاستطابة.

(٢) «لباب الآداب»: ٢٠٣.

مراد الحسن، رحمه الله تعالى، الأدب بمعناه العام الذى هو شعائر الدين، أما الأدب بمعناه الخاص فقد ذكر فيه ابن المقفع، رحمه الله تعالى، قاعدة جامعة للتحلى به واكتسابه، فقال:

«يا طالب الأدب، اعرف الأصول والفصول[1]، فإن كثيرًا من الناس يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول فلا يكون دركهم دركًا[2]، ومن أحرز الأصول اكتفى بها عن الفصول، وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل»[3].

فإذا حرص الشخص على الخصال الأدبية التى سنها الشرع، أو ارتآها الصالحون ولم تخالف الشرع، وحرص، أيضًا، على المحافظة على الأعراف الصالحة غير المخالفة للشرع المطهر، إذا حرص الشخص على ذلك كله، وحاول تطبيقه على نفسه وأهله، فإنه يرجى له أن يكون مؤدبًا، إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

المسألة الخامسة:

ذكر أهم كتب الأدب:

الكتب التى ذكرت الآداب على أنواع:

أولاً: كتب صنفت من أجل هذا الغرض لا غير، ومن أحسنها على ما أعلم، والله أعلم:

(١) أى أصول الأدب وفروعه، أو كباره وصغاره.

(٢) الدرك: اللحاق والوصول، انظر «المصباح المنير»: (د رك).

(٣) «الأدب الكبير»: ٢٤٦.

أ- «لباب الآداب» للأمير الكبير الصالح المجاهد أسامة بن منقذ[1]، أحد أبطال الإسلام، رحمه الله تعالى، وكان السلطان صلاح الدين يؤانسه ويجالسه، ويذاكره فى الأدب ويدارسه[2].

وتكمن أهمية الكتاب أن مصنفه قد عمله وعمره إحدى وتسعون سنة فوضع فيه عصارة عمره، رحم الله أئمتنا ما أعظم هممهم!

ب- «أدب الدنيا والدين» للإمام الماوردى[3]، رحمه الله، وقد شرحه شرحًا حسنًا الشيخ خان زاده[4]، وسمى ذلك الشرح: «منهاج اليقين».

جـ- «الآداب الشرعية» لابن مفلح الحنبلى[5]، رحمه الله تعالى، وهو من الكتب المليئة بالآثار وأقوال الصالحين فى الأدب.

د- «غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب» للشيخ محمد السفارينى[6] الحنبلى،

(١) ولد سنة ٤٨٨، وتوفى سنة ٥٨٤، وكان أهله أصحاب قلعة شيزر بقرب حماة، وكان من العلماء الشجعان، انظر «البداية والنهاية»: ١٢/ ٣٣١.

(٢) «مقدمة لباب الآداب» للأستاذ أحمد شاكر، رحمه الله تعالى: ٢٣.

(٣) الشيخ الإمام على بن محمد بن حبيب الماوردى الشافعى، أقضى القضاة، صاحب التصانيف، ولى القضاء ببلدان شتى، ثم سكن بغداد، تبحر فى المذهب الشافعى. توفى سنة ٤٥٠ وقد بلغ ٨٦ سنة، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ٦٤ - ٦٨.

(٤) أويس وفا بن محمد بن أحمد الأرزنجانى الشهير بـ(خان زاده)، توفى سنة ١٣٢٧، رحمه الله تعالى، انظر «الأعلام»: ٢/ ٣٢.

(٥) محمد بن مفلح بن محمد، أبو عبد الله شمس الدين المقدسى، الرامينى ثم الصالحى، ولد ببيت المقدس سنة ٧٠٨، وكان أعلم أهل عصره بمذهب الإمام أحمد، وله عدة مصنفات، توفى بدمشق سنة ٧٦٣ رحمه الله تعالى، انظر «الأعلام»: ٧/ ١٠٧.

(٦) محمد بن أحمد بن سالم السفارينى، شمس الدين أبو العون، ولد سنة ١١١٤، وكان عالمًا=

رحمه الله تعالى، شرح فيها منظومة «الآداب» للشيخ شمس الدين المرداوى الحنبلى[1]، رحمه الله، وهو كتاب ثَرٌّ، عظيم المباحث غزيرها.

هـ- رسالتا الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع، رحمه الله تعالى، وقد ذكر فيهم جملة من الأداب على هذه النصائح والعظات، وقواعد المخالطة لأصناف الخلق، وقد خلت الرسالتان من الآثار والقصص.

و- «من أدب الإسلام» للأستاذ أبى غدة، رحمه الله تعالى، وقد ذكر فيها آدابًا مناسبة لأهل العصر، يحسن الأخذ بها، ويشبهها فى هذا رسالة «تقرير ميدانى» للأستاذ الراشد، حفظه الله، فى بعض مباحثها.

ثانيًا: كتب أفردت للآداب أبوابًا من جملة أبوابها، مثل غالب كتب الحديث من صحاح وجوامع وسنن، وقد جاء فيها جملة وافرة من الأحاديث والآثار فى الأدب.

وهناك كتب حديثة ألفت لأغراض متنوعة حاز باب الأدب منها حيزًا واسعًا، مثل: «رياض الصالحين» للإمام النووى[2]، رحمه الله تعالى،

= بالحديث والأصول والأدب محققًا، ولد فى سفارين، من قرى نابلس وتوفى فيها سنة ١١٨٨، له عدة مصنفات، انظر «الأعلام»: ٦/ ١٤.

(١) على بن سليمان بن أحمد المرداوى ثم الدمشقى، فقيه حنبلى، من العلماء، ولد سنة ٨١٧ فى مردا، قرية قرب نابلس، وانتقل فى كبره إلى دمشق فتوفى فيها سنة ٨٨٥، رحمه الله تعالى، انظر «الأعلام»: ٤/ ٢٩٢.

(٢) مفتى الأمة، شيخ الإسلام يحيى بن شرف بن مرى، محيى الدين أبو زكريا النووى، الحافظ الفقيه الشافعى الزاهد، أحد الأعلام، ولد سنة ٦٣١ بـ(نوى) إحدى قرى حوران ببلاد الشام. وقدم إلى دمشق واجتهد فى طلب العلم والتعبد، وألف مصنفات نفع الله تعالى بها المسلمين، توفى بـ(نوى) سنة ٦٧٦، رحمه الله تعالى، انظر: «الوافى بالوفيات» ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٨.

و«الترغيب والترهيب» للحافظ المنذرى[1]، رحمه الله تعالى، و«جامع الأصول» لابن الأثير[2]، رحمه الله تعالى، «والتاج الجامع للأصول» للشيخ منصور ناصف[3]، رحمه الله، وغيرها.

ثالثًا: كتب الأخلاق والرقائق، والزهد، وقد أفرد فيها أبواب للأدب وأخبار الصالحين فى هذا الباب، منها: «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى على ما فى الكتاب من انتقادات حديثية وغيرها، ومختصرات الكتاب نافعة مثل: كتاب «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة[4]، رحمه الله، وكتاب «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» لعلامة الشام جمال الدين القاسمى[5]، رحمه

(١) الإمام العلامة الحافظ المحقق شيخ الإسلام زكى الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله المنذرى الشامى الأصل المصرى الشافعى، ولد سنة ٥٨١، وسمع من مشايخ كثيرين وقرأ القراءات، وله عدة مصنفات، توفى سنة ٦٥٦، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٣١٩ - ٣٢٤.

(٢) المبارك بن محمد بن محمد الشيبانى الجزرى، أبو السعادات مجد الدين، المحدث اللغوى. ولد سنة ٥٤٤/ وتوفى سنة ٦٠٦ بالموصل. وله عدة مصنفات نافعة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٤٨٨، و«الأعلام»: ٥/ ٢٧٢.

(٣) منصور بن على ناصف، من العلماء بالحديث، مصرى، كان مدرسًا فى الجامع الزينبى بالقاهرة، توفى بعد سنة ١٣٧١، انظر «الأعلام»: ٧/ ٣٠١.

(٤) الشيخ الإمام القدوة العلامة المجتهد موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسى الجماعيلى ثم الدمشقى الحنبلى، ولد بجماعيل من أعمال نابلس سنة ٥٤١، وكان من العباد الزهاد الأئمة، توفى بدمشق سنة ٦٢٠، رحمه الله تعالى، انظر «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٦٨٠ - ١٦٨٢.

(٥) محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين بن على، رضى الله عنهما، إمام الشام فى عصره، ولد سنة ١٢٨٣، وتصلع من العلوم والآداب، وله عدة مصنفات، توفى بدمشق سنة ١٣٣٢، رحمه الله تعالى، انظر «الأعلام»: ٢/ ١٣٥.

الله، و«المستخلص فى تزكية الأنفس» للشيخ سعيد حوى، رحمه الله تعالى، وغير ذلك.

ومن هذه الكتب أيضًا: «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» لابن حبان البستى[(١)]، رحمه الله تعالى، وكتاب «الغُنية» للشيخ عبد القادر الجيلانى[(٢)]، رحمه الله تعالى و«مدارج السالكين» للإمام ابن القيم، رحمه الله، و«تهذيب مدارج السالكين» للشيخ عبد المنعم العزى، حفظه الله، وغير ذلك من الكتب.

رابعًا: كتب ألفت فى آداب معينة، مثل: «أدب الطلب» للشوكانى[(٣)]، رحمه الله تعالى، و«الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع» للخطيب البغدادى[(٤)]، رحمه الله تعالى، وكلاهما فى طلب العلم، و«الإشارة إلى أدب الإمارة» لأبى بكر المرادى[(٥)]، رحمه الله تعالى، وغيرها.

---

(١) محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم، الإمام العلامة الحافظ، شيخ خراسان، التميمى الدارمى البستى، صاحب الكتب المشهورة، ولد سنة بضع وسبعين ومائتين، وحدث عن خلق كثير، توفى بمدينة بست سنة ٣٥٤، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ٩٢ - ١٠٤.

(٢) الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة، محيى الدين أبو محمد عبد القادر بن عبد الله بن جنكى دوست الجيلى الحنبلى، شيخ بغداد، ولد بـ«جيلان» سنة ٤٧١، وتوفى ببغداد سنة ٥٦١، رحمه الله تعالى، انظر «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٥٧٣ - ١٥٧٦.

(٣) محمد بن على بن محمد الشوكانى، ولد بشوكان، من اليمن سنة ١١٧٣، وهو فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، ولى قضاء صنعاء سنة ١٢٢٩ وظل عليها إلى أن توفى سنة ١٢٥٠ رحمه الله تعالى، له عدة مصنفات، انظر «الأعلام»: ٦/ ٢٩٨.

(٤) الإمام العلامة المفتى الحافظ الناقد المحدث أحمد بن على بن ثابت البغدادى صاحب التصانيف، ولد سنة ٣٩٢، وسمع فى صغره وكتب الكثير وتقدم وفاق أقرانه، وكان من كبار الشافعية، توفى سنة ٤٦٣، رحمه الله تعالى، انظر «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٤١١ - ١٤١٥.

(٥) محمد بن الحسن المرادى الحضرمى، كان أصوليًا متكلمًا وتولى القضاء بمدينة مغربية متاخمة لبلاد السودان وظل بها قاضيًا حتى توفى سنة ٤٨٩، انظر مقدمة كتابه المذكور.

خامسًا: كتب التراجم والتاريخ والأخبار التى اعتنت بأخبار الأدباء، وكذلك الكتب التى أفردت لأخبار الأدب والأدباء، مثل: «العقد الفريد» لابن عبد ربه[1]، و«الأغانى» لأبى الفرج الأصبهانى[2] على ما فى الكتاب من طوام!!، و«البصائر والذخائر» لأبى حيان التوحيدى[3]، و«التذكرة» لابن حمدويه[4]، و«المحاضرات فى الأدب والأدباء» للراغب الأصبهانى[5]، رحمهم الله تعالى، وغيرها من الكتب.

---

(١) العلامة الأديب الأخبارى، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه المروانى مولى أمير الأندلس هشام ابن الداخل، الأندلسى القرطبى، كان موثقًا نبيلاً، بليغًا شاعرًا. توفى سنة ٣٢٨ عن اثنتين وثمانين سنة، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٢٨٣.

(٢) العلامة الأخبارى، أبو الفرج على بن الحسين بن محمد القرشى الأموى الأصبهانى الكاتب، من ولد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، كان بحرًا فى نقل الآداب، بصيرًا بالأنساب وأيام العرب، جيد الشعر، والعجب أنه أموى شيعى، توفى سنة ٣٥٦ عن اثنتين وسبعين سنة، المصدر السابق: ١٦/ ٢٠١ - ٢٠٣.

(٣) على بن محمد بن العباس، الشيرازى وقيل النيسابورى، اختلف فى حاله الناس فمن قائل بتوثيقه، ومن حاكم بزندقته، كان متأدبًا متصوفًا، متفننًا فى علوم كثيرة، طلبه الوزير المهلبى ليقتله فاستتر، ومات فى استتاره سنة ٣٨٤، انظر «الوافى بالوفيات»: ٢٢/ ٣٩ - ٤١، و«سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ١١٩ - ١٢٣.

(٤) أبو المعالى محمد بن الحسن بن محمد بن على بن حمدون، ولد سنة ٤٩٥، تولى ديوان الزمام للخليفة المستنجد ثم عزله بعد ثلاث سنوات، وكان فصيحًا، له معرفة تامة بالكتابة والأدب، توفى حبوسًا لتوهم الخليفة أنه عرض بالدولة فى كتابه «التذكرة» سنة ٥٦٢، رحمه الله تعالى، انظر ترجمته فى «وفيات الأعيان»: ٤/ ٣٨٠ - ٣٨٢.

(٥) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصبهانى، العلامة الماهر، المحقق الباهر، صاحب التصانيف، كان من أذكياء المتكلمين، سكن بغداد واشتهر، توفى سنة ٥٠٢، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ١٢٠، ١٢١، و«الأعلام»: ٢/ ٢٥٥.

خاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لم أكن أظن، عند بداية تفكيرى بإنشاء هذه الرسالة، أن باب الأدب على هذه السَّعة، وأن الأخبار فيه متشعبة هذا التشعب، ولكنى عندما عالجت التصنيف فيه وجدته بحرًا واسعًا، فوفقنى الله تعالى لتخير بعض درره الأخرى من يوفقه الله لذلك.

ثم إنى قد أثلج صدرى، حقّاً، عظيم اهتمام الأئمة بالأدب وأخباره، وحرصهم عليه، وزجرهم وتعنيفهم من لا يحفظ الأدب فى نفسه ومع غيره، وإنى لأرجو من الله تعالى أن يكون كل مقدم فينا وصاحب فضل حريصًا على ما حرص عليه الأئمة فيُبعد ويزجر كل من يسىء الأدب، وينتقص الناس حقوقهم الأدبية، ويعاقبه على ذلك حتى يرعوى وينزجر.

وإن كان لى رأى أو اقتراح فى هذه الرسالة فإنه يتلخص فى أهمية إبراز علم الأدب، وتعريف الناس به فى المجامع والمحافل، وكتابة الرسائل المتنوعة التى تبين أهمية الأدب، وتبرز الجوانب التى يحتاجها المجتمع منه وكلها مهمة حتى يستأنس الناس بالأدب ويعتادوا عليه، فيصبح سمة بارزة فى المجتمعات الإسلامية.

هذا والله تعالى الكفيل بتحقيق ذلك، وهو سبحانه أعلم وأحكم، وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين، ذى الخلق العظيم، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

●●●

الأعلام المترجم لهم

١- إبراهيم بن الأشعث البخارى.

٢- إبراهيم بن طهمان الخراسانى.

٣- إبراهيم بن يزيد النخعى.

٤- إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى.

٥- أحمد بن إدريس القرافى.

٦- أحمد بن حفص السعدى.

٧- أحمد بن أبى الحوارى.

٨- أحمد بن سنان القطان.

٩- أحمد بن عبد الله بن محمد الهاشمى (الخليفة المستظهر).

١٠- أحمد بن على بن ثابت (الخطيب البغدادى).

١١- أحمد بن على بن محمد (ابن حجر العسقلانى).

١٢- أحمد بن محمد بن أحمد البردانى.

١٣- أحمد بن محمد بن عبد ربه (ابن عبد ربه الأندلسى).

١٤- أحمد بن محمد بن عبد الكريم (ابن عطاء الله السكندرى).

١٥- أحمد بن محمد بن عمر الخفاجى = الخفاجى.

١٦- أحمد بن محمد بن منصور (ابن المنير).

١٧- أسامة بن منقذ.

١٨- إسحاق بن راهويه إبراهيم بن مخلد النيسابورى.

١٩- إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندى.

٢٠- إسماعيل بن عمر بن كثير.

٢١- أويس بن محمد وفا.

٢٢- أيوب بن أبى تميمة كيسان السختيانى.

٢٣- البخارى = محمد بن إسماعيل.

٢٤- بزرجمهر.

٢٥- البطليوسى = عبد الله بن محمد.

٢٦- بقراط.

٢٧- البوشنجى = محمد بن إبراهيم.

٢٨- الجزرى (مجد الدين أبو السعادات) = المبارك بن محمد بن محمد.

٢٩- جعفر بن محمد الصادق.

٣٠- ابن جماعة = بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكنانى.

٣١- جمال الدين القاسمى = محمد جمال الدين.

٣٢- الجواليقى = موهوب بن أحمد بن محمد.

٣٣- ابن حبان = محمد بن حبان.

٣٤- ابن حجر العسقلانى = أحمد بن على بن محمد.

٣٥- حبيب بن الشهيد.

٣٦- ابن الخاضبة = محمد بن أحمد بن عبد الباقى.

٣٧- الخطيب البغدادى = أحمد بن على بن ثابت.

٣٨- الخفاجى = أحمد بن محمد بن عمر.

٣٩- الحسن بن على بن محمد = أبو على الدقاق.

٤٠- الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى.

٤١- الحسين بن محمد (الراغب الأصبهانى).

٤٢- الحكيم الترمذى = محمد بن على بن الحسن.

٤٣- ابن حمدون = محمد بن الحسن بن محمد.

٤٤- أبو حيان التوحيدى = على بن محمد بن العباس.

٤٥- أبو زيد الأنصارى = سعد بن أوس.

٤٦- الرازى (فخر الدين) = محمد بن عمر.

٤٧- الراغب الأصبهانى = الحسين بن محمد.

٤٨- الربيع بن سليمان المرادى.

٤٩- ربيعة بن أبى عبد الرحمن (ربيعة الرأى).

٥٠- رويم بن أحمد بن يزيد.

٥١- أبو زرعة الرازى = عبيد الله بن عبد الكريم.

٥٢- سعيد بن أوس = أبو زيد الأنصارى.

٥٣- سعيد بن جبير.

٥٤- السفارينى = محمد بن أحمد بن سالم.

٥٥- سفيان بن سعيد الثورى.

٥٦- سفيان بن عيينة الهلالى.

٥٧- سليمان بن داود، الشاذكونى.

٥٨- ابن السمرقندى = إسماعيل بن أحمد بن عمر.

٥٩- ابن السيد البطليوسى = عبد الله بن محمد.

٦٠- ابن سيرين = محمد بن سيرين.

٦١- الشاذكونى = سليمان بن داود.

٦٢- شريك بن عبد الله النخعى.

٦٣- شعبة بن الحجاج بن الورد العتكى.

٦٤- الشوكانى = محمد بن على.

٦٥- الضحاك بن مزاحم الهلالى.

٦٦- ابن عبد ربه = أحمد بن محمد.

٦٧- العبدرى = محمد بن سعدون.

٦٨- عبد الرحمن بن القاسم العتقى (ابن القاسم).

٦٩- عبد الرحمن بن مهدى.

٧٠- عبد العظيم بن عبد القوى (المنذرى).

٧١- عبد الغافر بن إسماعيل النيسابورى.

٧٢- عبد القادر بن عبد الله الجيلانى.

٧٣- عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيرى.

٧٤- عبد الله بن أحمد بن محمد (ابن قدامة المقدسى).

٧٥- عبد الله بن على السراج (أبو نصر الطوسى).

٧٦- عبد الله بن المبارك.

٧٧- عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى.

٧٨- عبد الله بن المقفع.

٧٩- عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد (المأمون).

٨٠- عبد الملك بن محمد بن عدى الجرجانى (ابن عدى).

٨١- عبد الملك بن مروان الأموى.

٨٢- عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد (أبو زرعة الرازى).

٨٣- ابن عدى = عبد الملك بن محمد.

٨٤- عروة بن مسعود الثقفى.

٨٥- ابن عساكر = على بن الحسن.

٨٦- ابن عطاء الله = أحمد بن محمد بن عبد الكريم.

٨٧- على بن الحسن بن هبة الله (ابن عساكر).

٨٨- على بن الحسين = أبو الفرج الأصبهانى.

٨٩- على بن سليمان المرداوى.

٩٠- على بن محمد بن حبيب (الماوردى).

٩١- على بن محمد بن العباس (أبو حيان التوحيدى).

٩٢- أبو على الدقاق = الحسن بن على بن محمد.

٩٣- الغزالى = محمد بن محمد بن أحمد.

٩٤- فخر الدين الرازى = محمد بن عمر.

٩٥- أبو الفرج الأصبهانى = على بن الحسين.

٩٦- الفراء = يحيى بن زيد.

٩٧- الفضل بن دكين (أبو نعيم).

٩٨- الفضيل بن عياض.

٩٩- ابن القاسم = عبد الرحمن بن القاسم.

١٠٠- القاسم بن سلام.

١٠١- قبيصة بن عقبة.

١٠٢- قتادة بن دعامة.

١٠٣- ابن قدامة = عبد الله بن أحمد.

١٠٤- القرافى = أحمد بن إدريس.

١٠٥- القشيرى = عبد الكريم بن هوازن.

١٠٦- ابن القيم = محمد بن أبى بكر بن أيوب.

١٠٧- ابن كثير = إسماعيل بن عمر.

١٠٨- المأمون = عبد الله بن هارون..

١٠٩- الماوردى = على بن محمد بن حبيب.

١١٠- المبارك بن محمد (مجد الدين الجزرى).

١١١- مجاهد بن جبر المكى.

١١٢- محمد بن إبراهيم البوشنجى.

١١٣- محمد بن أحمد بن سالم (السفارينى).

١١٤- محمد بن أحمد بن عبد الباقى (ابن الخاضبة).

١١٥- محمد بن إسماعيل (البخارى).

١١٦- محمد بن أبى بكر بن أيوب = ابن قيم الجوزية.

١١٧- محمد جمال الدين (القاسمى).

١١٨- محمد بن حبان بن أحمد = ابن حبان.

١١٩- محمد بن الحسن بن محمد (ابن حمدون).

١٢٠- محمد بن الحسن المرادى.

١٢١- محمد بن سعدون (العبدرى).

١٢٢- محمد بن سيرين (ابن سيرين).

١٢٣- محمد بن عبد الله بن محمد (الخليفة المهدى).

١٢٤- محمد بن على بن الحسن (الحكيم الترمذى).

١٢٥- محمد بن على (الشوكانى).

١٢٦- محمد بن عمر (فخر الدين الرازى).

١٢٧- محمد بن محمد بن أحمد الغزالى.

١٢٨- محمد بن مسلم بن عثمان (ابن وارة).

١٢٩- محمد بن مفلح.

١٣٠- مخلد بن الحسين الأزدى.

١٣١- المرداوى = علىٰ بن سليمان.

١٣٢- المستظهر العباسى = أحمد بن عبد الله بن محمد.

١٣٣- مسلم بن الحجاج النيسابورى.

١٣٤- ابن مفلح = محمد بن مفلح.

١٣٥- مقاتل بن سليمان.

١٣٦- ابن المقفع = عبد الله بن المقفع.

١٣٧- المنذرى = عبد العظيم بن عبد القوى.

١٣٨- منصور بن على ناصف.

١٣٩- المهدى = محمد بن عبد الله بن محمد بن على.

١٤٠- ابن المنير = أحمد بن محمد بن منصور.

١٤١- موهوب بن أحمد الجواليقى.

١٤٢- أبو نصر الطوسى = عبد الله بن على السراج.

١٤٣- أبو نعيم = الفضل بن دكين.

١٤٤- النووى = يحيى بن شرف.

١٤٥- هشام بن عمار السلمى.

١٤٦- ابن وارة (محمد بن مسلم).

١٤٧- يحيى بن زيد (الفراء).

١٤٨- يحيى بن شرف (النووى).

١٤٩- يوسف بن الحسين الرازى.

١٥٠- يونس بن عبد الأعلى الصدفى.

***

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- «**الأدب الصغير**»: عبد الله بن المقفع. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩.

٢- «**الأدب الكبير**»: عبد الله بن المقفع. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩.

٣- «**الأعلام**»: خير الدين الزركلى. نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٠.

٤- «**البصائر والذخائر**»: أبو حيان التوحيدى = على بن محمد بن العباس. تحقيق د. وداد القاضى. نشر دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨.

٥- «**تاج العروس من جواهر القاموس**»: السيد محمد مرتضى الزبيدى. تحقيق مجموعة من الأساتذة. مطبعة حكومة الكويت ١٣٨٦.

٦- «**تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم**»: الإمام بدر الدين ابن جماعة. تحقيق دائرة المعارف بحيدر آباد. نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

٧- «**تفسير القرآن العظيم**»: الإمام الحافظ ابن كثير. تحقيق مجموعة من الأساتذة. دار الشعب، القاهرة.

٨- «**تقريب التهذيب**»: الحافظ ابن حجر - أحمد بن على بن محمد. تحقيق الأستاذ محمد عوامة. نشر دار الرشيد، حلب، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧.

٩- «**جواب كتاب من الرى**»: الحكيم الترمذى. تحقيق بيرند راتكه. دار النشر فى شتوتجارت بإشراف المعهد الألمانى ببيروت، طبعة المطبعة الكاثوليكية.

١٠- «**زاد المعاد فى هدى خير العباد**»: الإمام ابن قيم الجوزية. تحقيق الأستاذين شعيب وعبد القادر الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٢.

١١- «**صحيح الإمام البخارى**».

١٢- «**صحيح الإمام مسلم**».

١٣- «**صفحات فى أدب الرأى**»: الأستاذ محمد عوامة. دار القبلة، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٢.

١٤- «**علماء الإسلام**»: الأستاذ محمد سليمان. دار الكاتب العربى.

١٥- «**غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب**»: الشيخ محمد السفارينى الحنبلى. نشر مؤسسة قرطبة.

١٦- «**فتح البارى بشرح صحيح البخارى**»: الإمام ابن حجر العسقلانى. تحقيق مجموعة من الأساتذة. نشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٣٩٨.

١٧- «**الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد ابن حنبل الشيبانى**»: تأليف الأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا. دار الشهاب، القاهرة.

١٨- «**كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون**»: حاجى خليفة = مصطفى بن عبد الله. نشر دار العلوم الحديثة، بيروت.

١٩- «**لباب الآداب**»: الأمير أسامة بن منقذ. تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر. دار الكتب السلفية، الطبعة الثانية ١٤٠٧.

٢٠- «**لسان العرب**»: الشيخ العلامة جمال الدين ابن منظور الأفريقى. دار صادر، بيروت.

٢١- «**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**»: الحافظ نور الدين الهيثمى. نشر مؤسسة المعارف، بيروت ١٤٠٦.

٢٢- «**المختار المصون من أعلام القرون**»: لواضع هذه الرسالة، نشر دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٥هـ.

٢٣- «**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**»: الإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ محمد الفقى، نشر دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣.

٢٤- «**المصباح المنير**»: الشيخ العلامة أحمد بن محمد الفيومى. نشر مكتبة لبنان ١٩٨٧م.

٢٥- «**مفاتيح الغيب**»: الإمام فخر الدين الرازى. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٥.

٢٦- «**منهاج اليقين شرح كتاب أدب الدنيا والدين**»: شرح الشيخ أويس وفا بن محمد خان زاده. نشر دار الكتب العلمية ١٤٠٠.

٢٧- «**من أدب الإسلام**»: الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة. نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الأولى ١٤١٢.

٢٨- «**موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين**»: الشيخ محمد جمال الدين القاسمي. دار الفكر، بيروت.

٢٩- «**نزهة الأرواح وروضة الأفراح**»: شمس الدين الشهرزوري = محمد بن محمود. تحقيق د. عبد الكريم أبو شويرب. نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس الغرب، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨.

٣٠- «**نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء**»: للمصنف. نشر دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى ١٤١١.

٣١- «**الوافي بالوفيات**»: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي. اعتناء رمضان عبد التواب، نشر دار فرانز شتاينر -فيسبادن، سنة ١٤٠٥.

٣٢- «**وفيات الأعيان**»: ابن خلكان = أحمد بن محمد بن أبي بكر. تحقيق د. إحسان عباس. نشر دار الثقافة، بيروت.

●●●

الفهرس

الموضوع — الصفحة

مقدمة الطبعة الثانية ٧

مقدمة الطبعة الأولى ٩

تعريف الأدب ١١

أهمية الأدب وفضله، وطلب الصالحين له ١٦

عقوبة تارك الأدب ٢٢

حاجتنا إلى الأدب ٢٥

- حصول الاطمئنان بين الناس ٢٥

- الأدب ينزع الأحقاد ٢٥

- الأدب مقياس لاستفادة الشخص من التوجيهات السلوكية لشريعة مجتمعه ٢٦

- الأدب يحقق الأخوة ٢٧

- الأدب طريق العلم النافع ٢٧

مراتب الأدب وتفاضل الناس فيها ٣٣

- الأدب مع الله تعالى ٣٣

- الأدب مع رسول الله ﷺ ٣٥

- الأدب مع الخلق ٣٩
- الأدب مع النفس ٤١
تفاوت البشر فى مراتب الأدب ٤٢
صور من حسن الأدب: ٤٤
- أدب الأنبياء الكرام ٤٤
- أدب الصالحين ٥٠
ذكر أنواع من الأدب تمس الحاجة إليها: ٥٤
- أدب الخلاف ٥٥
- أدب الإعذار واجتناب سوء الظن ٥٩
- الأدب مع العلماء والكبار وأهل الفضل ٦٠
- الأدب الشخصى والسلوكى ٦٩
طريق اكتساب الأدب: ٧٣
- تربية النشء عليه وأخذهم بتعاليمه ٧٣
- إبراز القدوات ٧٩
- تعليم الناس وتذكيرهم بأهمية الأدب ٧٩
- ترسيخ الأخلاق القويمة فى المجتمع ٨٠
- قراءة الكتب التى أفردت لأبواب الأدب ٨٠
- مصاحبة المربين المؤدِّبين ٨٠
- توقى الآداب المرذولة ٨١

- رياضة النفس ومجاهدتها ٨٢
مسائل متفرقة فى باب الأدب ٨٤
- هل الأدب ينافى الرجولة والقوة والشجاعة؟ ٨٤
- المؤدب قد يبدو منه بعض ما يظن أنه يخالف للأدب وذلك لغرض شرعى ٨٨
- عدم الاتفاق فى بعض المسائل لا يعنى إهدار سائر حقوق الأدب ٩٢
- قاعدة جامعة فى المؤدب، من هو؟ ٩٣
- ذكر أهم كتب الأدب ٩٥
خاتمة ١٠١
الأعلام المترجم لهم ١٠٣
المصادر والمراجع ١١٣
الفهرس ١١٧

***